# العلايقة

رواية

مُصْطفَى سَيْفْ

الرواق للنشر والتوزيع

**العاديات (رواية)**
**مصطفى سيف الدين**
**نسخة الكترونية خاصة بكندل أمازون**
الغلاف: عبد الرحمن الصواف
التصحيح اللغوي: أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع: ٢٢١٣٨/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ٢ ـ ٥٦ ـ ٥١٥٣ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
**جميع الحقوق محفوظة**

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

# إهداء

**إلى من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**

فقيهًا وصوفيًا فكن ليس واحدًا
فإني وحق الله إياك أنصح
فذلك قاسٍ لم يذق قلبه تقىً
وهذا جهول كيف ذو الجهل يصلح

**الإمام الشافعي**

في ظلمة الليلة التي خاصمها القمر كان يضرب بمعوله الأرض ضربات قاسية متوالية، الغريب أن الأرض لا تنزف دمًا، فقط ترابًا نديًا تمتزج فيه الرطوبة بالثرى، وهو بكل غضب يضرب ويضرب كأنه يعاقبها على ذنوب اقترفتها تجاهه، صوت الضربات يشق سكون الليل رغم أنه لا يصل لأحد، وصرخات الأرض تعوي في أذنه فيزداد جنونًا ويضرب.

## الخميس ٢٠ من المحرم ١٤٠٧ هـ/٢٥ سبتمبر ١٩٨٦ م

الشمس قرص أبيض في كبد السماء، الأشجار على جانبي الطريق لا يُرى لها ظل، كنساء بائسات تساقطت أوراقها الصفراء ولم يبقَ منهن سوى وجوه شاحبة تنظر إلى تلك الشاحنات، تلتمس منها بعض الحياة فلا تنال سوى العوادم السوداء.

كانت هناك سيّارة تقطع الطريق غير الممهد، تتقافز كأنها ضفدع أهوج، وبداخلها سبعة أشخاص بينهم فتى صغير لا يتخطى الأعوام العشرة، أصاب وجهه الشحوب أيضًا وجبينه العرق، قاوم وقاوم كثيرًا قبل أن يستسلم ويفرغ ما بداخل جوفه على ملابسه وأرضية السيّارة.

الشاب القابع في المقعد الأمامي بجوار السائق نظر إليه بشفقة ممزوجة بالاشمئزاز، ثم وجّه حديثه للرجل الجالس بجوار الصبي:

ـ ما كان له أن يأتي معنا، لماذا جئت به يا عبد الله؟

بينما السائق يتأفف ويزفر في ضيق، قبل أن يغلق جهاز التسجيل بالسيّارة الذي كان يصدح بإنشاد ومديح مصحوبًا بالمزمار، ويهدئ من سرعة السيّارة وهو يوجّه حديثه أيضًا إلى الفتى، محاولاً إخفاء ضيقه بابتسامة مفضوحة:

ـ لا عليك يا بني، يمكننا أن نتوقف قليلاً إن شئت.

اعتدل الرجل الذي كان في أواخر الثلاثينيات ـ والذي يدعونه عبد الله ـ في جلسته ولم يعر لحديث السائق والشاب بجواره اهتمامًا، فقط ربّت على كتف ابنه وأحاطه بحنان، ثم قدّم إليه ليمونة وقال:

ـ فلتمتصها، سيساعدك طعمها اللاذع كثيرًا، لقد اقتربنا يا عامر، أعلم أن الطريق كله معاناة لكنني أثق بك، لا تنظر إلى الطريق من حولك أو السيارات المارّة، يمكنك أن تُغلق عينيك وتفكّر فقط فيما ستراه هناك.. مراقبة الطريق ستصيبك بالدوار، عليك ألا تنشغل به عن هدفك.

ثم توجّه بحديثه إلى السائق:

ـ عذرًا يا خليفة، سيكون بخير، يمكنك أن تستمر في طريقك وتفتح جهاز التسجيل ثانية كي نطرب بمدح الحبيب.

حاول الفتى أن يُنفّذ ما طلبه أبوه، ظلّ يقاوم ويقاوم لكنّ رائحة البنزين المنفرة وقفزات السيّارة التي لا تتوقف دائمًا ما تنتصر في النهاية، والنهاية يصاحبها سائل أصفر له رائحة كريهة يخرج من بطنه، حاول الوالد أن يُدخل الابن في حديث حتى يهرب من أسر القيء، فقال له وهو يُخرج منديلاً ليزيل عن فيه أثر السائل:

ـ لقد صارت بلدة الجد الأكبر قريبة، فقط نصف ساعة ونصل.. وهناك ستستمتع بوقتك، فاليوم هو آخر أيام المولد الخاص به، المرماح سيبهجك والتحطيب سينسيك عناء الطريق، تحمّل يا بني، فقط تحمّل، انظر إلى عمك بدوي الجالس بجوار السائق، لقد تعدى احترام السن وهو من جلس

في المقدمة، لقد أكلت القطة عيالها!

قالها وقهقه ضاحكًا محاولاً أن يُدخل بعض البهجة في قلب الطفل، بينما التفت بدوي ـ ذلك الشاب في مقتبل عمره ـ إلى أخيه الأكبر وقال مسايرًا إياه في سخريته:

ـ القطة أكلت عيالها؟ أنت أكبر مني سنًا لكني أنضج منك عقلاً!

ضحك الجميع في السيّارة، فتمادى عبدالله قائلاً:

ـ انظروا من يتحدث! إنه بدوي.. سأخبركم سرًّا فعله بالأمس.. كان في مقهى الحاج فرحات مع...

ـ توقّف يا عبدالله ماذا تفعل!

ولكنّ عبدالله لم يتوقف، وأكمل:

ـ كان مع بعض أصدقائه يتسامرون وإذا بسيّارة الشرطة تحطّ على المكان، والضابط ومعه بعض المجنّدين والمخبرين يمرّون على كلّ الجالسين يتفحّصون أوراقهم الشخصية، فتذكّر بدوي أنه لا يحمل بطاقته، وبينما كان الضابط يمرّ وقبل أن يصل إليه بدأ يتراجع رويدًا رويدًا على أطراف أصابعه حتى وصل لآخر المقهى، وحينها.....

هتف بدوي في تبرّم:

ـ يكفي هذا يا عبدالله!

وعبدالله لا يكتفي أبدًا:

ـ ركض بكلّ سرعته، حتى إن قدميه صارت كأنّها حوافر حصان بلا لجام يسابق ذويه في مرماح المولد، الغبي لا يعرف أن هناك مخبرين يؤمّنون أول الشارع، لذا فوجئ حين أمسك أحدهم تلابيب جلبابه وهمّ بصفعه، لولا أن المخبر خضاري جارنا أوقف المخبر الآخر وهتف فيه ألا تعلم من هذا؟ إنه بدوي الرحماني.. لولاه ما كان الغبي معنا اليوم يجلس بجوار السائق ويحدّثنا عن العقل.

تعالت ضحكات كلّ من في السيّارة حتى إن جسد خليفة السائق ارتجّ من الضحك، وتحوّل وجه بدوي للون الأحمر وهو يُخفي خجله، حتى الفتى عامر ضحك قليلاً قبل أن يتوقف عن الضحك، فالحلم وُلد بداخله وهو يتخيّل الخيول التي تركض بلا لجام والرجال يلعبون بالعصا، إلا أن ذلك لم يوقفه عن القيء حتى وصلوا أخيرًا وتوقفت السيّارة، فكان أول الخارجين منها، ثم أسرع بعيدًا عنها حتى لا تصيبه رائحتها بالغثيان مرة أخرى. تابعه والده بنظره وهو يبتعد قليلاً ثم التفت إلى القرية، شعر براحة غريبة تجتاحه وهي تستقبله شجرة وارفة بالأوراق الخضراء رغم سبتمبر الشاحب، فملأ صدره بأنفاس النسمات الروحانية قبل أن يشدّه عامر من جلبابه بعد أن غسل فمه وأزال آثار القيء عن ثوبه، ليلحق معه بباقي أفراد العائلة في الديوان الضخم، حيث تجتمع كلّ فروع القبيلة من كلّ أقطار البلاد، بعد أكثر من ساعتين من مشقة السفر جلس الجميع يتبادلون الأحاديث، الوجوه البشوشة المُرحّبة والجلابيب التي

تُعطّرها رائحة المسك كأنّ اليوم يوم عيد، إلا الفتى لم تفح منه رائحة الطيب؛ فقط بقايا رائحة القيء.

لكنّ ما لفت انتباهه هو ذلك الإطار الزجاجي الذي يضمّ بداخله ورقة كُتبت بلغة غريبة وهي تُزيّن واجهة الديوان، فسأل والده عنها فأخبره قائلاً:

ـ كان جدّنا يشتهر بالعلم والورع في عهد أحد سلاطين المماليك، وحين قرر السلطان الخروج للجهاد ضد التتار بحث عمّن يخلفه فلم يجد مثل جدّنا، لكنّ الجدّ رفض، فهو كان يرى أن السلطة ستهدم كلّ ما شيّده الورع بداخله، فاحترم السلطان رغبة جدّنا وأرسل إليه خطاب شكر وصفه فيه بأن السلطان الحقيقي هو من يفرض سلطانه على شهوات نفسه مثل الجدّ، وهذا هو الخطاب بعد أن وضعناه في إطار خشبي.

تعالت معالم الدهشة على وجه الفتى وهو يُحدّث نفسه:

ـ جدّي رفض السلطنة؟ أي رجل هو؟

لم يمرّ وقت طويل قبل أن يدخل أهلهم حاملين فوق رؤوسهم صينيات الطعام الضخمة، لكنّ الفتى ظلّ تعجبه طيلة الوقت وهم يتناولون وليمة الغداء، كان أهل البلدة مضيافين عن حق، وهذه هي طبيعة الإنسان الصعيدي؛ يأنس بأقاربه ويفخر أن عائلته مترامية الأطراف تنتشر على طول الوادي.

انتهوا من الغداء واسترخوا حتى العصر، بينما الطفل لا شيء يسيطر على عقله سوى سباق الخيول واللعب بالعصا.

ـ سيبدأ المرماح قريبًا يا أبي، هيا بنا.

ـ اصبر يا عامر، سنصلّي العصر بعدها نزور جدّنا ثم نذهب للمرماح.

عند ضريح الجدّ الأكبر قرأوا الفاتحة وياسين، ثم نظر الصبي نحو قبر جدّه وخاطب نفسه: ربما إن كنتَ رضيتَ بالسلطة أو عطية السلطان لاستطعنا أن نحيا حياة مرفّهة كالتي أشاهدها في التلفاز، ربما كنا نزحنا إلى بلاد أكثر بهج...

قاطعه عن حديثه مع جدّه صوت حارس الضريح، كان يشير إلى حفرة في الأرض ويقول:

ـ هذه هي خلوة الشيخ، كان ينقطع عن البشر داخلها أربعين ليلة ليس معه إلا كسرة خبز وبعض الماء.

التعجّب المصحوب بالاستنكار طفا وجه الفتى ذي الملامح غير المُصدّقة لأي حديث:

ـ كسرة خبز وبعض المياه يكفون رجلاً أربعين ليلة؟! لا أُصدّق ذلك مهما أتيت بدليل!

ابتسم حارس الضريح وقال:

ـ هذه أحوال الأولياء يا بني، استغنوا عن الملذات فأغناهم الله بفضله،

يمكنك أن تهبط وترى بنفسك.

ـ حسنًا.

قالها وهو يُسرع في اتجاه الحفرة بقلب جسور، ثم قفز بداخلها ليرى.. كلا، لا يرى شيئًا، فقط الظلام يحتويه، مدّ يده يتلمس الجدران فوجدها ترابًا، إنه قبر! نعم قبر، هكذا يصفون القبر؛ مكان ضيّق تحت الأرض لا يكفي إلا رجلاً واحدًا، وهو مظلم كليل قفط حين يغادره البدر.

ـ كيف يبقى في هذا الظلام الدامس أربعين ليلة؟!

هكذا سأل الفتى حارس الضريح، فأتته الإجابة من أعلى:

ـ من يرى بقلبه لا تغشاه ظلمة.

ما بال ذلك الرجل يتحدّث بأشياء غريبة لا يفهمها الصبي، البقاء في الخلوة ليس ممتعًا، المخاوف والتهيّؤات بدأت تأخذ منه مأخذها، ربما هناك ثعبان ضخم أو عقرب سوداء تُعدّ ذنبها لتخترق به جلده فيقع أسير السمّ.

ـ أبي! أنا خائف!

تعالى صراخ الفتى، بينما الأب يحاول أن يُطمئنه قليلاً قبل أن يمدّ يده إليه ويُخرجه من الحفرة، بينما صدره يخفق بتسارع كأنّ بداخله مرجلاً لا يتوقف، فيسقط بين ذراعي والده الذي يحاول إفاقته.

اقترب أحد الرجال من حارس الضريح يقول له:

ـ كيف تصل به للمآل قبل أن تُجيب السؤال؟ كيف تبدأ معه بالنهاية وهو لا يدرك البداية؟ أي ذنب اقترفت هنا!

* * *

بعد أن أفاق الصبي أخذه الوالد للمرماح.. رؤية الخيول وهي تنطلق دون أن يوقفها شيء أنسته بعض الرعب الذي لحق به في الخلوة، رغم تلال الغبار التي تُثيرها حوافرها وتُشوّش عليه الرؤية؛ كان فرحًا مبتهجًا.

هو يعشق الحريّة والخيول، يحب الحياة ويحلم أن يكون فرسًا جامحة لا يوقفها شيء، بدأ الألق يُزيّن عين الفتى والبسمة تعلو محياه والبهجة تأخذ مأخذها، خصوصًا وهو يراقب الرجال وهم يحتطبون، الأقوى هو الفائز دومًا، صوت المزمار يُطربه وتمايل الرجال يُدخل السرور في قلبه، وفي النهاية أحدهم يستطيع انتزاع العصا من بين يدي الآخر، حينها يربح.

خيل بلا قيد، وساعد قوي يتشبث بما يملك، هذه هي أحلامه.

بعد العشاء كان المنشد طه الكلحي قد وصل، هذه اللحظة التي ربما أتت بأبيه إلى هنا، فهو كان يعرف أن المنشد الكبير سيحضر المولد.

أفزعته مكبرات الصوت المزعجة في ذلك الوقت من الليل وهي تعكس صوت المنشد الرخيم:

كلّ من في حماك يهواك لكن أنا وحدي بكلّ من في حماك

لك في الحي هالك بك حي في سبيل الهوى استلذّ الهلاك

يتمايل الرجال على صوته وهم يقولون الله، ينظر لأبيه يسأله:

ـ لماذا تتمايلون؟ ماذا يعني ما يقول؟

ـ فقط يا بني أطلق حواسك واترك جوارحك هي تفهم وتشعر، وتهيم بما يقول.

لم يفهم ولم يتمايل مع نسمات الرياح، وصوت المنشد ما زال يُغرّد:

عبد رق ما رق يومًا لعتق لو تخليّت عنه ما خلاك

كيف أتخلى ومقلتي كلّما لاح بريق تلفتت للقاك

هكذا طوال الليل هو ينشد قصيدة «تِه دلالاً» وهم يتمايلون، وهو يراقب ويتذكّر الخلوة فيرتعب، وينتظر اللحظة التي يرحل فيها عن هنا.. ناسيًا ما تحمله السيّارة من رائحة بنزين متشبعة بالمعاناة.

لذا في طريق عودتهم لـ «قفط» لم يكن أنفه قادرًا على تمييز الرائحة الكريهة، فصدره كان يعجّ بالأسئلة.

## ليلة الجمعة وصباحها ٣ ذي الحجة ١٤٢٢/ ١٥ فبراير ٢٠٠٢

تساقطت الأيام كأوراق تتداعى أمام رياح الزمن التي لا ترحم. وها هي ستة عشر عامًا مرّت منذ كان هناك في خلوة جدّه، صار الصبي شابًا فتيًّا ترعرع على خوفه من العزلة وكراهية الظلام، أفكاره تندرج تحت قواعد ثابتة أهمها أن الخلوة لا تحمل إلا خيالات وأوهام يصورها العقل المنطفئ، الحياة هي الحقيقة الوحيدة.

التعليم لا يهب إلا المشقة والحياة أقصر من أن تحمل كلّ ما نتمنى، لذا لم يكن طالبًا مجتهدًا أو مهتمًا بما يتعلّم، لكن كي يحيا في عيشة رغدة ذلك يتطلب منه المال، وعليه أن يُفكّر في الطريق الذي يربح به، أصبح حدّادًا ينفخ الكير ويُسخّر الحديد حسب إرادته، أحبّ ذلك لأنه يُشعره بالقوّة رغم المشقّة التي هي أعظم من التعليم ذاته.

كلّ عام يطلب منه والده أن يرافقه إلى مولد الجدّ الأكبر، لكنه يرفض دائمًا رغم محاولات الأب المستميتة، صوت الإنشاد الذي يعشقه الأب كان صُداعًا في رأسه وحرارة أعظم من حرارة الأتون الذي يقف في وجهه طيلة اليوم يصهر به الحديد.

يومًا وراء يوم صار القلب أقسى من الحديد الذي يلين حين ينصهر، وأصبح نزيلاً لغرزة تعرّف على روّادها، يتنفس من أرجيلتها دخّانًا ممزوجًا بالأفيون، وكأنّ الدخان صار حياته صباحًا أمام الكير وفي المساء نار الأرجيلة..

حسين كان أقرب أصدقائه، رغم أنه لا يعلم عنه الكثير لكنه نديم الليالي.

في تلك الليلة، بدأ المُخدّر يصل إلى أعماقهما، كان حسين يتحدّث عن مغامرة حدثت له الليلة الماضية، تلك الليلة التي عاد فيها متأخّرًا من الغرزة وشعر بصوت أقدام تسير خلفه ونسمة هواء باردة تلفح قفاه، الرعب كان يتملّكه فنظر خلفه، لم يجد أحدًا فهرول ولم يتوقف إلا حين وصل بيته.

توقف عن الحكي وضحك فبادله عامر الضحكات، وسخرا من خوفه، قبل أن يستطرد حسين:

ـ وأنت يا عامر، ما أكثر شيء يرعبك؟

تململ عامر وأخذ نفسًا عميقًا من الدّخان قبل أن يُعيده للهواء، ونظر إلى سقف الغرزة كأنّه ينتظر منه أن يمليه إجابة السؤال، قبل أن يقول:

ـ كلّ ما تحت الأرض يخيفني.

نظرات الاندهاش من وجه حسين كانت كافية ليكمل عامر:

ـ نعم كما أقول لك، كلّ ما تحت الأرض يرعبني.

ـ و ما الذي يختفي تحت الأرض ويخيفك، قبور، آبار؟!

ـ خلوة.

ـ خلوة؟!

ـ نعم، كالقبر هي لكنّها تُصنع للأحياء.

ضحك حسين من عقل عامر، أراد أن ينعته بالغبي لكنّه خاف أن يغضب، لذا قال له:

ـ لكنّ الكنوز أيضًا تكمن تحت الأرض، العام الماضي زارنا رجل طيب قال لنا إن أسفل منزلنا يكمن كنز فرعوني، وأشار علينا بالحفر وبقي معنا عدّة أيام يتابع معنا حتى حصلنا على الكنز، وقام بتصريفه وحصلنا على مال وفير، الأرض يا عزيزي لا تُخيف.

حين ذكر المال اشتعلت في رأس عامر الأفكار وتبددت المخاوف، لاحظ حسين اهتمامه فأكمل:

ـ أتعلم كم قطعة أثرية وجدنا تحت منزلنا؟ أتعلم كم كان نصيبنا؟ إن بيوتنا تطفو فوق كنوز ثمينة، والذكي من ينقّب عنها ويضعها في قبضة يده. لا تخف مما في باطن الأرض فظاهرها أكثر سوءًا من الباطن، ظاهرها وجوه كالحة، نار الكير وفقر مدقع.

ظل حسين يُعدّد في مساوئ الحياة بين عيون الناس التي لا تحمل إلا حسدًا أو حقدًا، وقلوبهم الجوفاء وعقولهم الفارغة.. ثم قال:

ـ عامر هذا العالم لن يعترف إلا بما تحمله جيوبنا من مال، أبي الذي كان فقيرا صار لديه عقار من خمسة طوابق في أرقى أحياء قنا.. لمثل هذا يموت الخوف.

ولماذا لا يحصل هو أيضًا على كنز من الأرض، هي مدينة له بخوفه وعليها أن تردّ دينها بأن تمنحه شيئًا أثمن، لذا حصل من حسين على عنوان الرجل وقرر السفر إليه رغم أن ما يفرقه عنه ساعات طويلة من السفر.

* * *

القطار ليس إلا علبة حديدية تضع فيها حياتك ليمتلكها رجل آخر هو السائق، وكلّ ما عليك هو أن تنتظر ليُعيد إليك ما استودعته إياه، وهذا لا يروق لعامر أبدًا، هو يستطيع تحمّل ما تقترفه يداه لكن لا يُسامح أبدًا فيما تقترفه أيادي الآخرين.

وها هي يد أخرى تقترف خطأً لا يُغتفر، فالتكييف مغلق في تلك العربة التي يرتادها، الجو خانق، العرق يتصبب فوق جبينه، بطرف جلبابه الأزرق يُزيل قطراته التي تحرق عينيه.

وبكلّ غضب يتأفف ويُرسل اللعنات والسباب على المسؤولين بالقطار الذي أصبح قبرًا حارًّا يتحرك بمن حمل، حين وصلت خواطره إلى القبر ارتعد، هبّ واقفًا وأسرع خارج العربة نحو العربة التالية، التكييف بها شديد البرودة، ارتعد من البرد، شعر كأنّها ثلاجة موتى لذا هرب منها أيضًا وبقي بين العربتين، فتح باب الخروج والقطار يدوي بعنف فوق القضبان ويجري بسرعته القصوى، فتح أزرار جلبابه وأطلّ بجذعه خارج القطار ليعترض الهواء بصدره وهو يصرخ منتشيًا:

ـ هواااااااااااء..

بينما هناك بعض الرجال ممن ينفثون سجائرهم في المنطقة الفاصلة بين العربتين ينظرون إليه بتعجّب، والبعض يُلوّح بيديه بإشارة تعني أنه بالتأكيد مجنون.

في تلك الأثناء مرّ أحد مسؤولي القطار وسأل عامر عن الباب المفتوح، فأجابه: أشعر بالاختناق في الداخل، التكييف مُعطّل ولا أستطيع التنفّس.

ـ حسنًا، سنصلح التكييف، ولكن أغلق الباب حتى لا يُضار أحد، وأرني تذكرتك.

بعد إصلاح التكييف عاد إلى مقعده يراقب الجميع حوله، وجوه مختلفة ذات ملامح شتّى، الباش والمتجهم، كثير الكلام والمنطوي، النائم ومن يُغنّي والمريض الذي يتأوّه.

هناك سيدتان في المقعد الذي خلفه لا تتوقفان عن الحديث، بينما هناك طفل ذو بكاء دائم.

الصداع بدأ يتملّكه، الانغماس بين البشر مرهق ويقود للجنون، فالكلّ يحيا حياته الخاصة دون أن يُعير الآخرين اهتمامًا.

الهواء البارد يملأ صدورهم حتى تحوّلت القلوب إلى جليد، غير مبالٍ بالآخرين.

قرّر التوقّف عن المراقبة، وضع يديه على أذنيه وأغمض عينيه ورحل إلى الحلم، بعد ساعتين سيصبح غنيًّا حين يُقابل الرجل المنشود.

* * *

بعد أن صعد الشيخ رمضان إلى المنبر وقرّب مكبّر الصوت من فمه، بدأ ديباجته بالحمد والثناء على الله ثم ذكر شهادة التوحيد قبل أن يقول:

أما بعد، يقول تعالى «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا قد علم كلّ أناس مشربهم».

نعم أيّها المؤمنون، قد علم كلّ أناس مشربهم، انظروا إليها وتمعّنوا، إن المشرب يكمن في باطن الأرض، وكلّ يعلم مشربه بما يوائم روحه، فمن يرى في الأرض قسوة الأحجار يتشرّبها قلبه، ومن يرى في الأرض الماء يتشرّب قلبه اللين، ومن رأى في الأرض الموت والقبور يتذكّر أن حياته قصيرة فتجعله يبحث عن المتعة فيها ويتشرّب قلبه الفسوق، وغيره يرى في الأرض الموت أيضًا لكنّ ذلك يدعوه للتذكّر فيعتبر ويتشرّب قلبه التقوى، فتشرّبوا أحبائي ما يقرّبكم إليه، فالموت خير واعظ وهو.....

كان كلّ من في المسجد يستمع إلى الشيخ ويُحاول فهم ما يقول، إلا رجل واحد ينظر يمينًا ويسارًا يبحث في الوجوه عن وجه ابنه.

ـ أين أنت يا عامر؟

* * *

وصل القطار أخيرًا إلى المحطة التي يبتغيها، هبط منه يتنسّم رائحة الأمل المنتظر، أخرج ورقة العنوان من جيبه، قدّمها لأحدهم سائلاً عن الطريق لتلك القرية.

وصف له الرجل ما يجب فعله وكيفية الوصول إلى موقف السيّارات الخاص بها.

أسرع من فوره حتى استقلّ السيّارة، رغم أنها كانت متكدّسة بالبشر وكانت أشدّ حرارة من عربة القطار إلا أنه لم يتذمّر، كان يشعر أن بغيته صارت قريبة جدًا، فليتحمّل قليلاً وسيصل.

عندما حطّت السيّارة رحالها سأل أحد الركّاب: كيف يمكنني أن أصل إلى بيت عبّاس الزهيري؟

نظر له الراكب نظرة ارتياب وتساؤل، قبل أن يرحل ويتركه دون أن يُجيب إلا بتمتمة غير مسموعة.

حملته أقدامه للتجوّل في تلك القرية يبحث في الوجوه عن بغيته، كان لا يملّ السؤال عن الرجل، حتى وجد رجلاً طاعنًا في السن، تجاعيد وجهه قد قام الزمن بنحتها بإتقان بارع حتى انحناءة ظهره نتيجة لضربات الدهر المتوالية، حين قام بسؤاله أجاب الشيخ بسؤال:

ـ وما لك به؟

تردّد عامر قبل أن يُقرر كتمان أمره، فقال:

ـ أحمل إليه رسالة، وكما تعلم يا عمّاه فالرسالة أمانة.

رمقه الرجل بنظرة فاحصة كأنه يرجّه وينتظر الحقيقة أن تتناثر من جسده، لكنه قال وهو يُشير نحو الغرب:

ـ حسنًا، بيت عبّاس الزهيري هناك بعد تلك التبّة، ولكن عليك الحذر يا ولدي، فالرجل تدور حوله الكثير من الشائعات.

ـ أيّ شائعات؟

ـ ظهر عليه الثراء الفاحش سريعًا فاشترى العديد من الأراضي في فترة قصيرة، ومن هذا المنطلق فالناس تبني شائعاتها، البعض يتحدّث عن أنه السبب في اختفاء هرّاس العايدي، ذلك الخفير الذي يقوم بحراسة المنطقة الأثرية الموجودة في أطراف القرية، كما أن هناك من يُعزي له سبب الجنون الذي أصاب ناصر الزيني بعد مشادة كبيرة معه أمام الجميع.

ـ وهل تُصدّق أنه السبب وراء كلّ ذلك؟

ـ لا أُصدّقه ولا أُكذّبه، فقط أنا أستمع كالباقين وأحذر كالجميع.

ـ حسنًا، سأحذر، أشكرك يا سيدي.

لا شيء يُوقف عامر حتى الحذر، المضي قدمًا نحو الحلم يستحق المجازفة حتى إن كان الحلم سرابًا، فليُكمل الطريق وليصعد التبّة ويهبط من الجهة الأخرى نحو عالم آخر يحمل رجلاً غامضًا تُحاك حوله الأساطير، الناس لا تألف

الغموض، جدّه كان غامضًا أيضًا لذا غزلوا الأساطير عنه، لا يستطيع رجل البقاء داخل قبر أربعين ليلة.

لماذا يتذكّره الآن؟ ربما كلام الشيخ أخافه فتذكّر كلّ ما يرعبه..

أخيرًا هو أمام البيت الذي لا تتضح عليه معالم الثراء رغم أنه واسع فسيح، فالجدران تُعيد إلى الهواء عبق الدهور والباب كئيب ذو صفرة كأنّه سقيم، يحمل حلقة حديدية أمسك بها وطرق.

أتاه صوت عميق من الداخل يقول له إنه قادم.

وانفتح الباب عن رجل أشيب في الخمسينات من عمره، يرتدي جلبابًا بُنّيًا، ذي شارب رمادي به بعض الشعيرات السوداء، وتُغطي رأسه عمامة بيضاء تُقاومها شعيراته البيضاء من الجانبين، ورغم تقدّم عمره كانت عيناه عيني نسر قوي يتحين لحظة الانقضاض على فريسته. بتلك العينين كان يتفحص عامر من رأسه حتى أخمص قدميه.

ـ من تكون؟

ـ اسمي عامر عبد الله الرحماني، أتيتك من الجنوب حيث قفط بمحافظة قنا، أتعرفها؟

ـ أعرفها بالطبع، لكنّك تقول الرحماني، فهل أنت من الرحمانية نسل الرجل الصالح؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ لقد قمت برحلة طويلة فتفضّل بالداخل، ولن نتحدّث عن شيء قبل أن تُشاركني الطعام، فالوقت وقت غداء وأنت على سفر.

لم يُفكّر عامر في رفض العرض، فقد كان الإرهاق يأخذ منه مأخذه ومعدته تموء من الجوع، لذا دخل من فوره وانتظر في مضيفة الرجل.

الجدار القديم يحمل صورًا فوتوغرافية ذات لونين أبيض وأسود عن وجوه تُشبه وجه عبّاس، بالتأكيد هؤلاء أجداده، ذلك ما لاحظه عامر وهو ينتظر بصمت، حتى قدم الرجل حاملاً صينية مزيّنة بأشهى الطعام وتشاركا فيه.

وعلى صوت رشفات الشاي بدأ عامر الحديث:

ـ لقد أخبرني صديقي حسين الدندراوي عنك وكيف قمت باستخراج كنز فرعوني من منزله، لذا قررت أن آتي إليك، قلت لك إنني من قفط وفي بلدي هناك شائعة تقول إن هناك وادٍ من ذهب يصل قفط بالقصير، لو استطعنا الوصول إليه ربما تحوّلت حياتنا.

ـ أوَتُصدّق الشائعات؟

ـ بل أُصدّق أنه ليس هناك دخان بلا نار.

قالها متذكّرًا ما قصّه الكهل عن عبّاس من شائعات، فتلعثم..

ـ نعم يا بني، بل إن الحقيقة ذاتها كانت شائعة، ما ذكره الأنبياء عن الله في البداية لم يكن بالنسبة للعامة سوى شائعة ثبتت صحتها، لم يُصدّق

أقوامهم أن هناك وحيًا يهبط من السماء واعتبروه شائعة فحاربوها، وصدّقها البعض وقاتل دفاعًا عنها لأنهم آمنوا بها، الإيمان نفسه شائعة تتملكك رويدًا رويدًا حتى تُسيطر عليك، باختصار كلّ ما يتعلق بالغيب يكون في البداية شائعة وتثبت صحّتها بعد حين.

صمت هنيهة وهو يُراقب ملامح عامر الذي بدا أنه يُحاول استيعاب ما يقول، فعامر رغم كلّ صفاته القبيحة، بداخله شيء يرفض أن يتحدّث عن الله بما لا يعلم، لذا ترك دفّة الحديث كاملة لعبّاس الذي ظلّ يُكمل وهو ينظر بعين النسر إلى عامر:

ـ لذا فأنا أُصدّقك، سأذهب معك لبلدتك وأعدك أن أجعل منك ثريًّا، لكن فقط أخبرني ما الذي يُمكن أن تصنعه لي في المقابل؟ أنت لا تملك إلا شائعة أما الحقيقة فإثباتها عندي، لكن عليك أن تُقدّم شيئا في المقابل.

لم يعلُ التوتر وجه عامر فهو كان يتوقّع ذلك، لا شيء دون مقابل..

ـ لك الأمر وعليّ الإجابة يا سيدي، سأفعل أي شيء وأُقدّم كلّ صنيع في سبيل أن أُصبح ثريًّا.

ابتسم عبّاس ابتسامة ظافر قبل أن يقول:

ـ أنت تسعى خلف المال وأنا أريد النسب، لذا أريدك أن تتزوج ابنتي إسعاد، هي في التاسعة عشرة من عمرها لذلك لا تظن بها الظنون، فقط أنا أبحث لابنتي عن الزوج المناسب وأقاتل من أجله.

الجملة الأخيرة كان لها صداها داخل عامر، من يكون هو؟ مجرد حدّاد تفرّقت به السبل عن الطريق الحقيقي، هو لا شيء، هو يعلم أن زواجه صار صفقة، عبّاس يملك المال لكنه يفقد النسب الذي تمتلكه عائلته.

القضية لا تعدو مجرد صفقة فليقم بها أو يرفضها، تلعثم عامر وسافر بعينيه بعيدًا حيث أبيه وعائلته، بِمَ سيخبرهم إن وافق؟

بدت عليه الحيرة فلاحظها عبّاس، لذا استدعى ابنته التي أتت تحمل صينية بها أكواب السائل الأحمر الذي تشرّب حمرته من وجنتيها النضرتين وجماله من ابتسامتها الحيية، واستمدّ تلاعبه واهتزازه داخل الأكواب من طفولتها التي تظهر في عينيها، اختلس عامر نظرات الإبهار والرضا، لكنّ هناك دائمًا شيئًا ما يُخيفه.

لاحظ عبّاس نظرات عامر وقرأ الرضا فيها، فقال:

ـ حسنًا، دعنا لا نؤجل الأمر، لديك أسبوع تُقرر فيه، هل نعقد الصفقة أم ننسى كلّ شيء.

* * *

في تلك الحجرة الضيّقة الدافئة حيث عبق الخشب القديم يمنحها روحانية خاصة لا تقلّ عن صوت المنشد من المسجل العتيق يُغرّد:

**عيني لغير جمالكم لا تنظرُ**

**وسواكم في خاطري لا يخطرُ**

**صبرت قلبي عنكم فأجابني**

**لا صبر لي لا صبر لي لا أصبرُ**

بينما أرضية تلك الغرفة لا تقلّ جمالاً أو روحانية، حيث تناثر عليها القشّ الذهبي فكأنّها عشّ كبير لطائر حالم.

وفي منتصفها منضدة عليها سراج كأنّه أباجورة مقلوبة، وُضعت على فتحتها قطعة من الكرتون السميك مثقوبة في منتصفها، مقعدان يجلس على أحدهما شاب صغير يُراقب بانتباه ما يفعله الحاج عبد الله الجالس على المقعد الآخر، بجواره قفص كبير له فتحة مربعة صغيرة في أعلاه، وقد تمّت تغطية ذلك القفص بالخيش القوي فلا يتضح ما بداخله إلا حينما يضع الحاج يده فيُخرج منه بعض القش، وفي منتصفه بيضة مغطاة بمخلّفات الدجاج.

أمسك البيضة برفق وقلبها بين أصابعه قبل أن يضعها فوق الجزء المثقوب من الكرتون، ووقف ليلحظ البيضة التي أصبحت بفعل الضوء كأنها جمرة من نار، واتجه بحديثه إلى الشاب:

ـ انظر جيّدًا يا عليّ، هذه البيضة مخصّبة تحمل جنينًا، لذا هي غير صالحة للبيع.. فلنستبعدها.

راقب عليّ بصمت الجمرة النارية ولاحظ الفارق بين البيضة المخصّبة والبيضة الصالحة، لكن كان هناك خاطر يحمل استفسارًا بداخله:

ـ ألأنها مخصّبة لا تصلح؟

ـ نعم، فإن الدماء بداخلها، والدم نجس يُبطل الوضوء ومحرّم علينا أكله.

ردّد الصبي دون وعي:

ـ الدم نجس، والجنين بداخل البيضة يُفسدها؟

ـ نعم يا بني.

التعب كان يحلّ بالحاج عبد الله ومازال القفص يحمل الكثير من البيض، لذا طلب من عليّ أن يصنع له كوبًا من الشاي.

قام الصبي من فوره واتّجه نحو الموقد في طرف الغرفة ليصنع الشاي، إلا أن الخواطر كانت تستعمر كلّ أفكاره، فارتعشت يداه ليسقط إناء السكر من بين أنامله مخلّفًا دويًّا، فيلتفت الحاج عبد الله نحوه ليُشاهد حبيبات السكر وهي تختلط بذرّات التراب في الأرض بينما يُحيط بها القشّ الذهبي، حمله ذلك المشهد بعيدًا إلى الوراء، حين أراد أن يجعل ابنه عامر يمتهن نفس مهنته وأجلسه معه يُعلّمه، لكنّ أصابع عامر كانت قاسية لا تُجيد التعامل مع البيض برقة، كسر الكثير من البيض حين كان يُقلّبه بين أصابعه، بل بادر بسؤال أبيه حينئذ:

ـ أبتِ، إنك تكدّ في جمع البيض من البيوت والقرى وكلّ من تعرف أنه يقوم بتربية الدجاج، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ وإنك تدفع ثمن كلّ ذلك البيض وبعدئذ تقوم ببيعه إلى المتاجر، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ إذن لماذا تقوم بفرزه وتُخرج التالف منه مادمتَ تتحمل الخسارة وحدك؟

كان لوقع السؤال دهشة، هو تعلّم تلك المهنة عن أبيه الذي تعلّمها عن جدّه، ولم يسأل نفسه ذلك السؤال حينئذ ولم يفكّر طيلة حياته في الخسارة فقط، كان الربح القليل المبارك يُغنيه، لكنّه أجاب عامر:

ـ لو أن فقيرًا لا يملك من المال سوى أن يشتري بيضة وكسرة خبز ووجدها تالفة بعد معاناته، فلماذا يتحمّل الخسارة وحده؟

ـ أنتحملها نحن بدلاً عنه؟

ـ نعم.

ـ أبي، الحياة لا يخسر فيها إلا المغفّل!

شعر الأب بقسوة الحروف، وراقب من ابنه قسوة اليد، فقال له:

ـ يا بني ابحث لك عن حرفة أخرى، أنت لا تصلح لحرفتنا، ولكن ما دمتَ تحدّثت عن الحياة فاعلم أن الحياة كالبيضة، إن قبضتَ عليها أكثر تكسّرت لتُلوّث يديك بدمائها المخصّبة أو صفارها النتن.

لم يبالِ عامر بما قاله والده، لكنّه بالفعل وجد صنعته في صهر الحديد وتشكيله كيفما يريد، سافر الحاج بذكرياته ليوم زيارته لابنه في حانوته، يرى الحديد المنصهر ووجه ابنه الغارق في عرقه والآتون المشتعل الذي لا يرحم، فقال لنفسه:

ـ حرقة القلوب أشدّ قسوة وأعظم عذابًا.

قال الجملة الأخيرة بصوت عالٍ بينما خانته دمعة من عينيه وجدت طريقها نحو فمه ليشعر بمرارتها.

سمعه عليّ، فتساءل وهو قادم بصينية الشاي:

ـ أتحدّثني يا عمّاه؟

ـ بوركت يا بني، كلا..

ـ بل سمعتك تتحدّث عن حرقة القلوب، فأخبرني يا عمّاه عن البيضة التالفة المخصّبة التي تحمل بداخلها جنينًا، هل هذا يحرق قلب ذويها؟

كانت هذه أول مرة ينتبه فيها الحاج لذلك، لذا صمت، لم يعرف إجابة.. وجد نفسه أمام جيل يحمل من الأسئلة ما لم يؤرقهم في صباهم أبدًا، وجد جيلاً قاسيًا حدّ الحديد رقيقًا حدّ الحرير، بينما كان هو في صباه يتعلّم بلا سؤال، ومع رشفات الشاي الساخنة كانت تدور بداخله أفكار أكثر سخونة، لكن ذلك لم يصل به إلى إجابة سؤال الصبي، لذا قرّر التهرّب قائلاً:

ـ إن الوقت قد حان لرحيلك يا بني، فلتُبلغ والدك السلام وتشكره بالنيابة عني أنه منحني إياك.

## الثلاثاء ٧ ذي الحجة ١٤٢٢/ ١٩ فبراير ٢٠٠٢

جلس عامر في أحد المقاهي بأسيوط بعد أن قرّر ألا يعود إلى قفط وأن يقضي ذلك الأسبوع بعيدًا عن بلدته، حتى يكون قريبًا من إسعاد إن قرر قبول العرض.

المقهى في مواجهة محطة القطار، السيّارات الفارهة المسرعة محركّاتها تُصدر صريرًا ودويًّا مزعجًا يتناغم مع كركرة النرجيلة، وفي أصداء عقله صوت الأساور التي كانت تُزيّن ذراعيها، تمتزج الأصوات بداخل رأسه لتُذكّره بصوت قطار القصب الذي كان يركض خلفه صغيرًا، أصابعه القوية تنتزع الأعواد انتزاعًا ويُلقيها على الأرض، كان يسحب الأعواد أكثر من حاجته وفي النهاية يعود مُحمَّلا بكومة من القصب، يضع إناءً في بطن البيت القديم ليُلقي فيه بقايا القصب بعد أن يمتص شهده، وعلى الصوت الناتج من الامتصاص يتذكّر والده حين عاتبه:

ـ هذه سرقة يا عامر!

ـ لكنّه حلو المذاق.

ـ كلا يا ولدي، الحرام يخسف بأهله، فلا تفعل ذلك مجدّدًا.

قالها الوالد وترك ابنه يُكمل امتصاص قصبه، الحياء كان سمة الحاج عبد الله حتى مع ابنه، كان يستحي أن يوبّخه مؤمنًا أن ما بداخل نفسه أكثر سوادًا مما يفعله ابنه، لذا لم يُقوّمه موقنًا أن الحياة ستُعلّمه.. كان حانيًا عليه، فهو ابنه الوحيد الذي أصبح كلّ أسرته بعد وفاة والدته وسفر أخيه بدوي للغردقة حيث يعمل هناك، لكنّ الابن لم يفهم ذلك، لذا استمر على غوايته.

وهو الآن في أسيوط يُراقب الأبراج العالية بألوان الواجهات الرخامية البرّاقة بجوار المقهى، الذي اختلط بصاق الزبائن المخاطي بأرضيته الترابية، بينما أنامل فتى المقهى تغوص في أكواب الشاي وهو يُقدّمها له، كيف لذلك المقهى القذر أن يُواجه تلك الأبراج الشاهقة؟ إنها أسيوط ذات العجائب.

يتذكّر بلدته قفط حيث الشوارع الضيّقة التي لا تسمح بمرور أكثر من سيّارة واحدة فوق أرض غير ممهدة، وبائعي الخضروات على الجانبين لا يتوقّفون عن النداء لسلعهم، والبيوت أشباح قائمة بلا حياة مشققة الجدران، واللبنات المتساقطة تُوحي بأنك أمام شواهد قبور، نعم بالداخل موتى لا يعرفون الحياة، والحياة ها هنا عند إسعاد، ارتشف شربة من الشاي الساخن قبل أن يحزم أمره، أسرع إلى الحانوت المجاور للمقهى وطلب أن يتّصل بالهاتف.

* * *

البرد في الخارج يشتد لكنّ حجرة الحاج عبد الله الدافئة تحميه من سياط الشتاء، إلا صوت الأطفال في الخارج يلعبون ويهتفون

«شادلي يا أبوالحسن، ياللي بلادك بعيدة، فيها أحمد وحميدة، حميدة جابت ولد سمّته عبد الصمد».

يبتسم الحاج ويرحل بعيدًا مع صيحاتهم وهتافهم يتذكّر أيام صباه فيُغلق عينيه، يتذكّر أن عيد الأضحى قد اقترب وذكرى سيدي أبو الحسن الشاذلي قد دنت، وهو لا يريد أن يُفوّت قضاء أول أيام العيد هناك، أصوات مكبّرات الصوت تقترب وتتعالى بالغناء «شادلي يا أبو الحسن».

يتمنى أن يُلقي بنفسه في إحدى السيّارات لولا ابنه الذي لا يعلم عنه شيئًا، كان يعرف أنه سيعود كما يفعل دائمًا لذلك لم يكن ذلك يُقلقه، لكنّه الفراق.

انتزعه من أفكاره صوت الهاتف..

ـ السلام عليكم.

ـ كيف حالك يا والدي؟

ـ عامر! أين أنت؟

ـ في أسيوط.

ـ ماذا تفعل هناك؟

صمت عامر قليلاً، كان يستجمع شجاعته قبل أن يقول:

ـ أبي، لقد قررت أن أفعل ما تطلبه مني دائمًا، قررت الزواج.

بدهشة مصحوبة بالحبور هتف الحاج عبد الله:

ـ أحسنت يا بني، الزواج نصف الدين، أنتظرك كي نبحث لك عن زوجة مناسبة.

ـ كلا يا أبي، لقد حزمت أمري واخترت زوجتي.

ـ تراها من تكون؟

ـ هي ابنة رجل طيب تعرّفت عليه في أسيوط، لكنّها باهرة الجمال كما أن والدها ثري.

ـ الاختيار ليس بالثراء والجمال فقط، فلتصطبر حتى نسأل عنهما.

ـ كلا يا أبي، قلت لك إني حزمت أمري، الزفاف خلال هذا الأسبوع، وسأبقى هنا أسبوعًا بعده ثم أعود.

تساقطت دموع الحاج عبد الله لتصنع طريقًا يصل للسمّاعة، قبل أن يقول:

ـ لن تقضي العيد معي؟!

لا يُجيبه إلا الصمت من الطرف الآخر، برهة قبل أن يردّ عامر:

ـ سأنتظرك يا أبي الجمعة القادمة عند محطة القطار كي تحضر زفافي.

ـ كلا يا بني، لن أحضر، لقد نذرت اليوم الذهاب لمولد سيدي أبو الحسن الشاذلي، كن سعيدًا يا ولدي.. أنتظر عودتك.

قالها ووضع سماعة الهاتف قبل أن يتهاوى على المقعد يكتم الصراخ، وصوت مكبرات الصوت يعلو «شادلي يا أبو الحسن ياللي بلادك بعيدة».

فيحزم أمره ويخرج من منزله ليجد قبالته سيّارة النقل الضخمة المزيّنة بسعف النخيل، فيقفز بداخلها برشاقة لا تُناسب عمره أو جسده الواهن.

ثم يستند إلى إحدى جدر السيّارة ويسافر بخاطره أبعد من بلاد الشاذلي البعيدة، هناك حيث ابنه عامر الذي سيتزوج، وأخيه بدوي الذي يعمل بالغردقة ويقيم هناك ولم يأتِ منذ زمن طويل، فيجد نفسه بعد أن بلغ من العمر أرذله وحيدًا، بلا أخ أو ابن.

وضع رأسه بين فخذيه ودموعه تُغرق جلبابه الأزرق، يُحاول الهرب من ذكرياته، فيستمع لرجل بجواره يحكي للأطفال إحدى قصص القطب أبو الحسن الشاذلي، فكان يقول:

ـ وأمر الولي خادمه أن يُحضر معه قدومًا وقُفّة قبل أن يبدأ رحلة الحج، فسأله الخادم: لماذا يا سيدي؟ أجابه القطب: في حميثرة سوف ترى، ومضيا في طريقهما إلى مكة حتى بلغا حميثرة، وهناك قام القطب ليُصلّي ركعتين، وبينما هو ساجد في الركعة الثانية قُبضت روحه.

تعجب أحد الأطفال وقال: وهل يعرف القطب متى سيموت؟

أجاب الرجل: حين قال الولي «في حميثرة سوف ترى كان يقصد....»

بينما الرجل يكمل حديثه عن كشف الحُجُب، وفراسة المؤمن الذي يرى بنور الله؛ كان الحاج عبدالله يُمني نفسه بأنه عند حميثرة سوف يرى، فهو ذاهب لهناك فقط كي يرى.

الشاحنة تسير في الطرق الوعرة بين الجبال، تعرف جيّدًا مستقرّها ومجراها، غناء الصبية لا يتوقّف، والأحاديث الجانبية بين الشباب لا تنتهي، كلٌّ يبحث عن البهجة، إلا هو يبحث عن الصحبة، عن الهروب، عن عيد مع رفاق.

وبعد ساعات طويلة لاحت صحراء عيذاب وبدا جبل حميثرة للعيان، أخيرًا ضريح القطب.

وقفت الشاحنة وتقافز الجميع وساعدوه على الهبوط، يلتقط أنفاسه فيتنسم عبير الصحراء المصحوبة بروحانية المكان، رفع عينيه تجاه الجبل، الشمس في منتصف النهار، حمدًا لله أنه الشتاء، بدأ في رحلة الصعود بتؤدة، قدم خلف قدم ببطء شديد حتى استطاع بلوغ القمّة، جلس جلسة التشهّد يُطلّ بناظريه على الرفاق بالأسفل لا يكادون يظهرون، وأمامه الضريح، إلا أن عينيه الباكية لا تُظهر المشهد جليًّا كما هو عليه.

أتى هنا كي يدفن وحدته، ولكنّ الغريب أنه حالما وصل بحث عن الوحدة كي يبكي، الرياح الممتلئة بالأتربة لم تدفعه للهبوط، لكنّه انشح بشاله ورفع يده للسماء:

«إلهي يا رب السموات والأرضين، يا خالق الشوق والحنين، يا زارع البسمة من رحم الأنين، يا واهب العطايا يا رب البرايا

أتيتك حافيًا عاريًا أتدثر برحمتك وأستعطف نورك.

ربي إن بذرتي قد حملتها الرياح النائية إلى أرض ليست أرضي، فهل إن صارت شجرة لم تُظلّل قبري؟

اللهمّ ردّ إليّ ابني، اللهمّ ردّ إليّ ابني».

ظلّ يُكرّرها والدمع يختلط بالتراب على وجهه، قبل أن يُبلّل شاله بالطين، وبينما هو كذلك شعر بيد تُربّت على كتفيه فارتجف، ونظر للواقف بجواره.. كان رجلاً يرتدي جلبابًا أبيض تعلو رأسه طاقية بيضاء، وله ذقن قصيرة، كان في منتصف الأربعينات، وجهه من ذلك النوع الذي تشعر معه بالراحة حين تراه.

ابتسم الرجل: أراك هنا وحيدًا أيها الحاج، ما اسمك وما قصّتك؟

هالة نور تُزيّن جبين الرجل بعثت في الحاج عبد الله الراحة فوجد نفسه يقصّ على الشيخ أبوالمكارم كلّ شيء، كان عبدالله يبحث عن كتف يدفن فيها آلامه وتُخلّصه من نار الوحدة، لذا لم يُفكّر إنما سالت الشكوى بحورًا منه تحت أقدام الشيخ، الذي ابتسم قبل أن يقول: أنتم يا أحفاد الرحماني كالخيول المقيّدة بوتد، مهما ركضتم بعيدًا تعودون، دماؤكم الطاهرة تحفظكم.

ـ الدماء نجس.

ـ جسد المؤمن لا يحمل إلا النور.

ثم رفع الشيخ يده إلى السماء قائلاً: اللهمّ يا نور يا نور، هذا عبدك تدثّر بشاله وفزع إليك، اللهمّ دثّره بذراعيّ ابنه، اللهمّ ردّه إليه وأدخل عليه البِشر والسرور.

ندت السماء بالغيث فأعانه الشيخ على الوقوف وأشار عليه أن يبقيا في الضريح حتى يتوقف المطر، هبطا من الجبل ودخلا الضريح، جلس الحاج عبد الله بجوار السور الحديدي للضريح يبكي بينما يقف الشيخ أبو المكارم بجواره، أتى إليهما رجل يبدو من جلبابه المُرقّع وعينيه الزائغة ولحيته الكثّة غير المُهذّبة وحركاته العصبية أنه مجذوب.. اقترب من الحاج عبد الله قائلاً: مرماح، في؟

ردّ الحاج: كلا يا بني، إنها صحراء جرداء لا يوجد هنا مرماح.

غضب المجذوب وكرّر: مرماح، في؟

فيأتيه نفس الجواب.

فيزداد غضب المجذوب ويُكرّر سؤاله، فيُجيبه الشيخ أبو المكارم هذه المرة: نعم، في..

فينظر إليه الحاج عبد الله بتعجب، فيستطرد الشيخ:

ـ إنما هو يقصدك، كلّ منا بداخله مرماح من هواجس وأفكار وأحلام وطموحات، كلّها تتصارع بداخل كلّ منا فتُثير الأتربة وتحجب الرؤية، عليك أن تُنظّف الأتربة أيّها الحاج كي ترى.

بدت البلاهة على الحاج عبدالله:

ـ لكن ليس بداخلي أفكار سوى الوحدة.
ـ الوحدة مرماح عظيم، إن استسلم لها صاحبها يكون فريسة حزنه.
ـ ما الحلّ إذن أيّها الشيخ الجليل؟
ـ بالتأكيد قد زرت سابقًا ضريح سيدي أبو الحجّاج الأقصري، هل رأيت الضريح نابتًا من معبد الأقصر؟
ـ نعم.
ـ هناك أماكن لها قدسيّة خاصة في النفوس حتى لو اختلفت الأزمان، مثل مكان ضريح سيدي أبو الحجّاج، الفراعنة بنوا معبدهم هناك ثم دخلت المسيحية مصر فصارت كنيسة قبل أن تُدمّر في القرن السابع الميلادي، وفي النهاية صارت مسجد سيدي أبو الحجّاج، باختلاف الأزمان يحفظ قدسيّته، باختلاف الأديان يحتفظ بروحانيته، أتعلم أن بداخل المسجد حجرًا فرعونيًا نُحت عليه أن رمسيس الثاني بريء من سرقة تماثيل أسلافه، إنها شهادة المسجد أن فرعون أكثر المغضوب عليهم من البشر ليس بسارق، إن قضية طرده من رحمة الله ليس لأنه سارق لكنّه كإبليس استعلى وتكبّر، الكِبر أعظم الذنوب.
ـ لا أفهم ما تريد قوله.
ـ أنت يا صديقي بداخلك مرماح، الحلّ أن تصفو نفسك دون تكبّر، فليكن داخلك مكانًا مقدّسًا من غير عجب، الحل أن تملأ روحك بالله دون رياء، حينها سيتجلّى الولي الذي يسكن ضريح قلبك.

* * *

## الخميس ٩ ذي الحجة ١٤٢٢/ ٢١ فبراير ٢٠٠٢

علت مكبّرات الصوت من الجامع العمري أكبر مساجد قفط، تهتف «أهالي قفط الكرام ونواحيها، طفل صغير تائه لديه سبع سنوات واسمه حسام مهدي السعدي، وعلى من يجده أن يُحضره للمسجد».

تكرار النداء بمكبّر الصوت أفزع عليّ من نومه، فقام بتكاسل ينفض النعاس من عينيه التي يفركها من العماص، قبل أن يُغادر السرير وهو يتثاءب، تحرّك بتكاسل ليُغادر الغرفة، أزاح ورقة كرتونية بها بعض فضلات الطيور من عتبة الباب قبل أن ينظر إلى أعلى ويبتسم، حيث استوطنت على مصباحه الكهربي قنبرة صنعت عشًا هناك ووضعت بيضها، فألقى عليها التحيّة، فهو كلّ ليلة يتأكد من وضع الورقة الكرتونية أسفل العشّ.

خرج إلى بهو البيت القديم الذي تظهر على ملامحه فخامة وعبق مائة عام، سقفه المرتفع وجدرانه العريضة تُوحي أن أصحابه أولي شأن، على إحدى الجدر صورة لجندي بذراع واحدة يؤدي التحية العسكرية للرئيس السادات الذي يهمّ أن يمنحه نيشانًا، إنه والده عبد الدايم أثناء استلامه وسام نجمة سيناء عن بطولاته في الحرب.

اندهش عليّ حين رأى أخاه عمر ذا اللحية الكثّة والوجه العبوس مستيقظًا يُتابع صور الحجيج وهتافاتهم في التلفاز، فابتسم قائلاً:

ـ صباح الخير يا عمر.

نظر إليه عمر بعدم ارتياح وردّ:

ـ بل السلام عليكم.

ـ نعم السلام عليكم، شيء عجيب؛ استيقظت مُبكّرًا هذا الصباح رغم أنه أجازة وقفة عرفة.

ـ كي أُكحّل عيني بعرفة وأُشنّف أذني بأصوات الحجّاج وهتافاتهم.

ابتسم علي بسخرية حاول ألا يُظهرها، فهو يعرف أخاه جيّدًا، في مثل هذا الوقت كلّ يوم يكون نائمًا رغم أنه يعمل في إحدى الإدارات الحكومية ويُعطّل مصالح الناس، والآن هو يستيقظ مبكّرًا حتى يُراقب ما يُبهجه، الإنسان بطبعه أناني تتحكم فيه نفسه، سواء بالغيّ أو بالطاعة، غيّ يؤخره عن مصالح الناس أو طاعة تُشعره أنه خير من الناس، وعمر كان من أولئك البشر، وعليّ يعرف أخاه جيّدًا، لكنّه أبدًا لم يجادله.

صعد عليّ إلى السطح حيث والدته منكبّة على الفرن الطيني وهي تتشح بالملابس السوداء، وجهها يعلوه بعض سواد الفرن بينما يبدو عليها الإرهاق، ومن حولها ألواح الصاج المليئة بالكعك ذي اللون الذهبي والرائحة التي تملأ صدرك براحة غريبة فتشتهي معها الحياة.. اقترب من أحد الألواح، قلّب إحدى الكعكات إلا أنه تذكّر أنه صائم، ألقى التحيّة على والدته قبل أن يبتسم قائلاً:

ـ يقولون إن هذا العيد هو عيد اللحم وليس الكعك!

نظرت إليه نظرة ساخرة قبل أن تُمسك السيخ الحديدي وتلفّ حوله الخرقة السوداء التي غمرتها في الماء، كانت تقوم بتنظيف الفرن بعد أن انتهت:

ـ بعد كلّ ذلك العمر يأتي ابني ليُخبرني أيّ عيد هذا!

ضحك عليّ:

ـ إذن لماذا الكعك؟

ـ ليس لنا، هذا أول عيد يمر على جدّتك وحيدة في قبرها، غدًا سنزورها ونقوم بتوزيع الكعك على فقراء المقابر

ـ إنه العيد يا أمي حيث الفرح، لماذا نذهب للمقابر؟

ـ إنها جدّتك، وزوجة « البيه» وأم « البطل» عبد الدايم، كيف نتركها وحدها؟!

ـ هل يعرف عمر أنكم ستذهبون يوم العيد لزيارة جدّتي؟

ـ لا يهم، فلم أنسَ ما فعله في جنازة جدّته الشهر المنصرم، كيف هدم الصوان وطرد النساء، لقد جعلني أشعر بالخزي!

ـ لكنّه يقول إن الشرع حرّم صراخهن.

ـ حتى وإن كان كذلك، هم ضيوفك؛ ألا تستحي!

صمتت هنيهة ثم استطردت وهي تحيا ذكريات شبابها:

ـ أتعلم يا عليّ؟ أنا ذقت مرارة اليتم وخبرته جيّدًا، والحياة تصنع من اليتيمة إما حيية تخجل حتى تخاف طرف ثوبها، أو ماجنة جريئة لأقصى الحدود، وكنت الأولى، حتى إن أم عبدالدايم بعد أن عاد ابنها من الجبهة بذراع واحدة خطبتني إليه ورضيت، أخبرني أن أجمل ما فيّ هو خجلي الذي يزيد من حسني، دخلت بيت «البيه» عضو مجلس الأمة السابق، اليتيمة صارت دُرّة منزل البيه، صارت جدّتك أمي، فكيف لا آتيها في أول عيد، تلك الوحيدة التي انقطع عنها البشر وهي التي كانت حاضنة للجميع

ـ وعمر؟ سيسوءه ما تفعلون.

ـ لا يهمّني، لو حاول منعي سأُسوّد وجهه بتلك الخرقة السوداء التي أُنظّف بها الفرن، فمن يكون عمر حتى أخشاه، ذلك الولد لا أعلم ما حدث له بأسيوط... تغيّر كثيرًا وتبدّل حاله!

ـ أسيوط تُبدّل البشر يا أمي.

ـ ربما يا بني، بعض الأحيان أشعر أنك أنت من أتممت تعليمك في الجامعة وليس «عمر»، أتساءل كيف لم تُفلح في المدرسة وكيف أفلح فيها هو!

ـ لا يهمّ يا أمي، فأنا سعيد هذه الأيام برفقة الحاج عبد الله، هو يُحبّني، لكنّي أراه حزينًا يعلوه الهم.

ـ من له ولد مثل عامر عليه أن يغتمّ!

قالتها وهي مازالت تُنظّف أرضية الفرن التي هدأ دُخّانها وقلّ صهدها، وعيناها الحمراوان من الدخان تذرف دموعًا ليس من فرط الحرارة، ولكن لتذكّرها أنها لن ترتمي في ليلة العيد على صدر أم عبد الدايم فتغتسل من همومها وتبرأ من خوفها وتعود وضّاءة لاستقبال العيد.

* * *

أسيوط تُبدّل البشر يا أمي، حين قالها عليّ لم يُلقِ لها بالاً، هو لم يذهب إلى هناك من قبل، إنما تعوّد أن يقول ما يخطر بعقلَه مباشرة دون تفكير، عمر ليس الوحيد الذي تبدّل حاله في أسيوط.. هناك عامر الذي وإن لم يتبدّل حاله هناك إلا أنه أمام مفترق طريق عظيم.

هو هناك في دار عبّاس الزهيري يُعدّان للعرس الذي سيكون في أول أيام العيد، وعبّاس يؤكد له أن كلّ شيء معدّ ومجهّز له حتى غرفته، من يملك المال فهو يملك الوقت، هكذا قالها عبّاس، لكنّ القلق كان باديًا على وجه عامر الذي بحث عن حديث آخر حتى يُنزل فيه قلقه، فقال:

ـ هل بحثت في أمر الشائعات التي أخبرتك بها؟

اعتدل عبّاس في جلسته وقرّب منه الأرجيلة ثم أخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول:

ـ أنا أعرف الهيروغليفية جيّدًا ودرست التاريخ، وأعلم أن هناك واديًا كان يصل بين قفط والقصيّر يدعى وادي الحمامات، هو ذلك الوادي الذي يصل بين النيل والبحر، الماء العذب بالمالح، لتمرّ منه القوافل التجارية حتى تصل للبحر ومنه لبلاد بونت والحبشة، فتعود خيرات النيل لمنابعه، لذلك لا أستبعد أن يكون هناك وادٍ من ذهب هناك، خصوصًا أنني موقن أن قفط تطفو فوق كنز فرعوني كبير، أتعلم؟ في العام الماضي كنت في قفط ووجدنا تمثالاً ذهبيًا، كلا، بل تحفة ذهبية فرعونية مصنوعة من الذهب المجوّف.. لن تفهم ما أقصد، لكن يكفي أن أقول لك إن بالضغط على التمثال تتغير وضعية جلوسه، لأن الذهب ليس مصقولاً بل مجوّفًا، إنها أبدع ما صنع الإنسان من الخداع البصري، لقد بعناه بخمسة وستين مليونًا من الدولارات.

تعالى حاجبي عامر وهو يستمع للرقم ويتخيّل كم يساوي، قبل أن يضمّ شفتيه وينفخ في إعجاب ويُمني نفسه بثروة مثيلة، مع زوجة جميلة، بالتأكيد هو الرابح الأكبر.

## الجمعة ١٠ ذي الحجة ١٤٢٢/ ٢٢ فبراير ٢٠٠٢

الصقيع يجعل عبد الدايم يرتعد، إلا أنه لا يستطيع أن يتدثر سوى بذراعه الأيسر بعد أن فقد الأيمن، ملامح وجهه المجعّد وهو في عقده الخامس صارت أكثر تجعيدًا، كان عائدًا من صلاة الفجر ليستعد لشعائر العيد.

كان يلفح وجهه بشال يتدثر داخله ويخبئ فيه آلامه، اليوم عيد، فليبتهج، لكنه يأبى الفرح، يراقب خطواته في الشوارع الوعرة الخالية حتى من الضوء فيسير بتؤدة، نور صلاته يقوده، الهدوء يصحب الهواجس والذكريات، الهدوء يصحب عطر والدته، كم تمنّى أن يستيقظ البشر، كم تمنّى أن ينتهي الهدوء.

ربما هو مجاب الدعاء، فبعض الكلاب دنّست الهدوء بنباحها وهي تُطارد قطة، النباح يتصاعد، الهدوء ينقلب ضجيجًا، يُصاب بالذعر، يهمّ بأن يضع يده على أذنه لكنه لا يملك إلا يدًا واحدة، حتى لو حاول أن يمنع أذنه اليسرى من السمع فاليمنى لن تتعظ، أقسى ما يعانيه الفرد أن يضطر إلى الاستماع إلى ضجيج العالم وهو عاجز عن أن يتخذ أي إجراء تجاهه. يريد أن يصل إلى البيت كي ينتهي شعوره بالعجز، يُسرع حتى إذا وصل استقبلته صورته على الجدار يوم أن حصل على الوسام، فيعود شريط ذكرياته إلى تلك الأيام.

بسالته وبطولاته وهو يحمي ثكنته بعد الحصار الذي أطبقه الصهاينة وكلّفه ذراعه، وحين عاد من الجبهة كان يشعر أن العاجز الحقيقي هو من كان في بيته صحيحًا بينما هو يحميه، لذا رفض التعويض الذي قدّمته الحكومة، حتى لو بمعاش معاقين، هو ليس معاقًا.

لكنّه استيقظ بعد فترة على ما خسر، الفداحة الحقيقية أن تكون ابن البيه، ترفض التعويض كما ترفض أن يُنظر لك بشفقة، ماذا يمكن أن يعمل ابن البيه المعاق؟ لا شيء.

والدته كانت ترى في عينيه ذلك، تُراقبه والأيام تتساقط بلا جديد، لذا نصحته بالزواج ورشّحت له فاطمة فهي يتيمة، هي تريد السند وهو يريد السكن، التقت طموحاتهما وصارت لفاطمة أسرة، لكنّه لم يسكن.

رغم أنه يملك من الأراضي الكثير إلا أن ذلك لا يعود عليه إلا بالقليل، فهو يقوم بتأجيرها لأخيه عبد الحميد، وايجار الأراضي الزراعية زهيد وموسمي حتى وإن كان لأخيك، مرّت الأيام وعانى الأمرّين كي يُلحق ابنه الأكبر عمر بكلية الحقوق بأسيوط، أما ابنه الأصغر عليّ فصنع معروفًا بأن فشل في الدراسة، لكنّه أيضًا لم ينفع في عمل، تنقّل من بين يدي النجّار إلى السبّاك إلى النقّاش، كان لا يستمر في أي عمل أكثر من شهرين، حتى صاحب الحاج عبدالله في جمع البيض.

تعالت تكبيرات العيد لتوقظه من ذكرياته المريرة التي لفحته مع نسمات الفجر، يدخل الحجرة، يهزّ فاطمة ليوقظها:

ـ قومي، إنها تكبيرات العيد.

تتثاءب قليلاً وهي تنفض غبار النوم عنها..

ـ ألن تقول لي كلّ عام وأنتِ بخير؟

ـ ما كنت أقولها لكِ قبل أن أقولها لأمي.

تقوم فاطمة وتوقظ الأبناء ويذهب الجميع للصلاة، وما إن تنتهي الخطبة حتى يهمّ عبد الدايم مع ابنه عليّ وزوجته إلى موقف السيّارات، ويضغطون أنفسهم بين الركّاب في العربة ذات الصندوق الخلفي، وفاطمة تحمل كيس الكعك، الطريق الوعر ذو المطبّات يجعل الركّاب يتكوّمون فوق بعضهم البعض رجالاً ونساءً، يتقافزون فيمتزجون كأنّهم كومة من اللحم، يصرخون في السائق ليجعل السيّارة أبطأ، لكنّ عبد الدايم صامت يشعر بالعجز وهو يضع أصابع يده الوحيدة على سقف الصندوق، حدّث نفسه أنه لو كان يملك مالاً لاستأجر سيّارة خاصة، ينظر إلى الخارج، كلّ تلك المساحات الخضراء هي ملكه لكن لا تصل إليه، مطبق الفم نازف القلب دامي الروح يشعر بوجع العجز، والسيّارة لا تقف وهي تبتلع المطبّات مصحوبة بالألم، حتى وصلت

بين يدي والدته، قرّر أن يشكو وهو يقف أمام الشاهد إلا أنه شكو صامت حتى لا يسمعه ابنه، بينما فاطمة لم تستطع أن تمنع دموعها وهي تضمّ الشاهد إلى صدرها، كانت تجهش في البكاء:

ـ كيف تتركيني يتيمة ثانية، أماه أحتاجك!

عليّ أخرج مصحفًا صغيرًا وظلّ يتلو سورة ياسين، وبينما يقرأ أفزعته صرخة أبيه الذي سقط على الأرض فارتطم رأسه بالشاهد ونزف دمًا، فزع إليه ليرى عقربًا تركض من طرف ثوب والده، لو أن الظرف عادي كان سيُكبّر ثلاثًا فتقف العقرب ـ دومًا العقرب تُلبّي النداء ـ ثم يقطع ذنبها ويتركها تمضي، لكنّه لم يهتمّ بالعقرب، بل ركض لوالده الذي يتلوى وهو يُحاول أن يُمسك بقدمه اليمنى صارخًا:

ـ آه، قدمي!

حاول عليّ أن يُطمئن والده أنه بخير:

ـ تعكّز عليّ يا والدي وسنذهب إلى الوحدة الصحيّة.

همّ عبد الدايم بالقيام والتعكّز على ابنه، لكنّه لا يملك سوى ذراعًا يسرى، لذا كان عليّ على يساره حتى يستطيع أن يُطوّقه، صار عبد الدايم بلا جانب أيمن فالقدم اليمنى لا يستطيع الوقوف عليها، فصار جسده مائلاً لليسار وهو يحجل متعكّزًا على ابنه الذي في اتجاه ساقه الوحيدة، فسقط ثانية.

هذه المرة كان سقوطًا مدوّيًا بداخله، زلزالاً أصابه بجرح لا يندمل، الدموع لا تتوقف، بينما فاطمة تصرخ، وبصوت واهن قال:

ـ صرت عاجزًا يا ولدي.

لم تكن هذه أول مرة يشعر فيها بالعجز، لكنّها كانت الأصعب..

ـ لا عليك يا أبي، سأحملك بين ذراعيّ.

نظرات اليأس التي كان ينظر بها عبد الدايم فجأة انقلبت إلى نظرات هلع وهو يقول:

ـ كلا، اذهب أنت ودعني.. الصهاينة يُحدّقون بنا من كلّ جانب!

الفزع أصاب عليّ وهو ينظر لأبيه نظرات مشفقة، يبدو أن الحرارة ارتفعت من فرط السمّ وأصابته بالهذيان، لم يبالِ بإجابته، حمل أباه بين ذراعيه ومضى إلى الوحدة الصحيّة وفاطمة في إثره.

الحرارة تزداد والوالد يهذي لابنه ناصحًا، لكنّ صوته كان واهنًا:

ـ لا تدعهم يأخذوا سلاحك، حارب بضراوة واتركني، سأموت شهيدًا.

الحقيقة الفاجعة أن الوحدة الصحيّة ليس بها مصل مضاد لسمّ العقرب وعليه أن يمضي إلى مستشفى المركز، لم يكن هناك وقت كي يلوم المسؤول، عليه أن يُسرع، والحرارة تزداد والسمّ سارٍ، ولكنّ الهذي توقف، فعبد الدايم قد أُغشي عليه قبل أن يصلا إلى المستشفى ويُحقن بالمصل.

عاد الجمع إلى البيت بسلام حيث عمر في انتظارهم لا يعرف ما حدث، وما إن رأى والده مغشيًا عليه حتى ركض نحوه ونسي صفعته التي صفعه إياها الشهر المنصرم حين طرد النسوة من عزاء جدّته، كلّ شيء يُنسى، حتى القصّاب الذي همّ بذبح الأضحية في بيت البيه نسوا أمره ولم يشهدوها.

* * *

الأرض لا تهتمّ بطعم الدماء بل تبتلعها دائمًا، ففي حميثرة ذُبحت الأضاحي لإطعام ضيوف القطب وانهمرت الدماء مذاقها الحب فابتلعتها الأرض، وفي بيت البيه بقفط ذُبحت الأضحية بنيّة السنّة، وكان مذاق الدماء خوف ألم وهواجس فابتلعتها الأرض، وفي بيت عبّاس الزهيري ذُبحت الأضحية وليمة للزفاف فسالت دماؤها بلا مذاق، دماء جافة معدنية، هكذا هو طعم الصفقات، وابتلعتها الأرض أيضًا.

حتى الغربة تعتصر القلوب حزنًا وأسفًا فتتساقط الدماء وتبتلعها الأرض، وتحمل صاحبها في متاهة الواقع حتى تضيع بوصلته ولا يعرف أيّ جهة يبتغي السير فيها.

هذا حال بدوي الرحماني في الغردقة، لا يجد نفسه في تلك المدينة التي يغرق في خضم بحرها ولا يرتوي منها إلا بملحه الأجاج.

بدوي الذي ترك قفط منذ خمسة عشر عامًا وارتحل بحثًا عن رزقه الذي وجده كعامل أمن في شركة سياحية بالغردقة، رغم رفض أخيه الحاج عبدالله إلا أنه أصرّ على الرحيل، وأنجب ابنه عمّار هناك منذ سبعة أعوام، وقبله عفاف ذات العشرة أعوام.

الغردقة مدينة تجمع بداخلها القاصي والداني، يتوافد إليها الجميع من شمال القطر حيث الإسكندرية، إلى أقصى جنوبه من أسوان، ليس ذلك

فقط؛ بل من شتّى دول العالم، فصارت مدينة غريبة، طابعها يختلف من شارع إلى آخر، وهذا مرهق جدًا لشخص مثل بدوي الذي لم يستطع التأقلم معها، وكان ينتظر الأجازات كي يُهرول لبلدته، إلا أنه في ذلك العيد تمّ تكليفه بمأمورية عاجلة، حيث عليه الحصول على توقيع بعض الأوراق من مدير الشركة، الذي هو الآن في فرعها بالأقصر، عليه أن يلحق بفوج الأتوبيسات السياحية الذي يرتحل من الغردقة في وقت مبكّر، لكنّه فقده حين أصرّ أن يُصلّي العيد أولاً حتى لو اضطر أن يذهب على نفقته، لكن من حسن الطالع أن هناك أتوبيسًا تأخّر عن موعده لتأخّر بعض السيّاح، فما كان منه إلا أن جلس بداخله، وهو الآن هناك يراقب مرافقيه الذين لا يتعدّون العشرة سيّاح بصحبتهم ضابط شرطة.

انطلق الأتوبيس يشق الصحراء الشرقية حتى يصل إلى قنا، يمرّ بجوار مسجد سيدي عبد الرحيم القنائي فيتلو بدوي الفاتحة في سرّه، قبل أن يراقب السيّارات والرجال الواقفين على جانبي الطريق حتى يمرّ أتوبيسهم الخاص بالسائحين، الكلّ يقف ليمضي الغرباء ويشقّون طريقهم نحو الجنوب، يترقّبون مرور أتوبيس واحد تأخّر عن فوجه، هو يستمع للعنات في وجوه السائقين رغم أنها لا تتعدّى شفاههم، والبعض يُخرج رأسه من نافذة السيّارات لينظر إلى الأتوبيس ربما رأى فتاة سائحة متبرجة عارية الذراعين تحملهم من تلك الحياة الراكدة، لكنّ آمالهم تبوء بالخيبة، الأتوبيس يمضي ويقترب من قفط، ينظر إلى آخر ما يصل به بصره ربما رأى بيته القديم أو أخاه، لا شيء مما تتوق إليه نفسه، إلا أن الحنين يُصوّر له أن بساتين الجنان أرض قفط الوعرة، يتمنى لو يستطيع القفز من الأتوبيس المسرع لكن هيهات، يبتسم ابتسامة انفعالية كي يضغط على أسنانه أكثر، ثم يلوي شفاهه بأسى ويتابع الطريق والأتوبيس يكمل مساره.

و قبل أن يصل الأتوبيس إلى قوص وفي منطقة منعزلة مقطوعة بين الجسور يقف، فيندهش بدوي، فهو يعلم أن تلك الأتوبيسات أمنيًا لا يجب أن تقف، فشحذ كلّ بصره ليحفظ المشهد كما يجب، رأى رجلاً معه طفلين يقترب من الأتوبيس، وحين وصل فُتح الباب، فيرى الرجل جيّدًا، إنه يعرفه، هو عوض قاعود، يُسلّم الطفلين للضابط ويُغلق الباب ليُكمل الأتوبيس مساره.

الحيرة تتصبب عرقًا من وجهه ودموع الطفلين اللذين لم يتخطيا السابعة لا تتوقف، والضابط يُهدّدهما إن لم يصمتا سيُعنّفهما.

وبدوي يُفكّر ويتذكّر كلّ ما يعلمه عن عوض قاعود.. لقد جاء آل قاعود واستوطنوا قفط دون أن يُعرف لهم أصل، هم أهل سوء والجميع يعرف ذلك، بدأوا كمتسولين وشحّاذين ورجالاً للبيه يساعدونه في حملاته الانتخابية، إلى أن صاروا من الأثرياء، يتاجرون في كلّ شيء ولا يتورّعون عن بيع أي شيء.

لم يتوقف سيل أفكاره حتى بعد أن وصل إلى الأقصر، وظلّ حائرًا إلى أن توقّف الأتوبيس ثانية لينتزعه من بحر الحيرة الذي غرق فيه، ظنّ أنه وصل

إلى الفندق الخاص بشركته، لكنه يا للعجب وجد الأتوبيس يقف بجوار مستشفى، وفُتحت الأبواب ليُعطي الضابط الطفلين لرجل آخر دخل بهما للمستشفى.. الحيرة تزداد، ولأن الريبة جعلته حذرًا وظنّ أن كلّ مشهد فيما يحدث مهم؛ دوّن اسم المستشفى في عقله «مستشفى الدكتور حافظ البنداري»، ظلّ صامتًا إلى أن حطّ رحال الأتوبيس إلى مقره الأخير ليُنهي مأموريته ويذهب لصلاة الجمعة.

* * *

صعد الشيخ أبو المكارم للمنبر بتؤدة، هو ليس إمام المسجد، بل لا يراه الكثيرون إلا نادرًا، لا يعرفون من أين يأتي ولا أين يختفي، ومع ذلك قدّموه كي يخطب بهم الجمعة.

وقف على المنبر وبدأ في الحديث بعد الحمد لله والثناء عليه قائلاً: أما بعد، فاعلموا أن العشق هو ما يُرطّب القلوب ويجعلها ندية تُقاوم الرياح والأهواء، الحب أصل كلّ شيء وهو تتمة كلّ شيء ومآل كلّ شيء، وإني أراكم محبّين تُجدّدون الحب كلّ عام مرة حين تمتطون مطاياكم لتقودوها إليكم، لكن لماذا أرى قلوبًا مثقوبة يتساقط منها الخير تباعًا؟ أيها الأحبة رتّقوا قلوبكم بالعشق واحفظوا ماءها الذي به تصلون إليكم، اليوم عيد وغدًا عيد وكلّ يوم لا تعصي فيه الله عيد، وكلّ يوم تعشق فيه الله عيد، وكلّ يوم يرطب قلبك بذكره عيد، أعلم أنكم ستعودون اليوم لدياركم فلا تدعوا قسوة الحياة تتمكن منكم، قاوموها بالعشق والذكر.

ومضى في حديثه وعينا الحاج عبد الله تفيض بالدمع، لم يُفكّر وقتها في عامر، شعر أنه سيعود إليه إن وجد هو نفسه..

و أين نفسه؟ إنها حائرة في المتاهة ضائعة في البحث عن الوهم، لا يجد سبيلاً للولي الذي يسكن ضريح قلبه كما قال له الشيخ..

انتهت صلاة الجمعة ومضى الجميع في سعيهم للعودة إلى بلادهم، وقفز هو في الناقلة بعد أن ودّع الشيخ أبو المكارم الذي أوصاه أن يرعى قلبه.

لم يفهم كيف يرعاه لكنّه أومأ بالإيجاب، الناقلة تسير في الصحراء الجافة، والقلوب التي كانت بين يدي القطب من دقائق صارت لهفى ظمأى إليه، تمنّت لو عادت بها الناقلة ثانية، لكن هيهات، بعد قليل ستصل بهم الشاحنة إلى الحياة القاسية ثانية.

كان أول ما استقبلته عيناه في قفط هو صديقه الشيخ رمضان إمام المسجد العمري متكئًا على أريكة في كنف المسجد، ألقى الحاج عبد الله عليه التحيّة والتهنئة بحلول العيد وجلس بجواره.

ـ كيف حميثرة؟

ـ بهيّة كعادتها لكن هذه المرة مختلفة، قابلت شيخًا يُدعى أبوالمكارم قال لي إن بداخلي قلب هو ضريح ولي.

أشرقت الابتسامة في وجه الشيخ رمضان وقال:

ـ هنيئًا لك، أظن الشيخ صادقًا.

ـ أخبرني عنك، كيف قضيت العيد؟

ـ كالعادة يا صديقي، استقبلت في المسجد منذ الصباح جلود الأضاحي وأصوافها، ومع كلّ متبرع نعلن عنه بمكبّرات الصوت، أتعلم؟ إن أهل هذه البلدة تختلف أفكارهم وأحلامهم وتتضارب مصالحهم، ربما يقتلون بعضهم بعضًا لأسباب تافهة لكنّهم يتّحدون في شيء واحد، جميعهم يسارعون في إعمار المساجد بالصدقات، وربما لا يعمّرونها بالصلوات.

ضحك الحاج عبدالله حتى ظهرت نواجذه، بينما استطرد الشيخ رمضان:

ـ فلنقم لزيارة صاحبك.

ـ من؟

ـ البطل.

ـ عبدالدايم؟ ما خبره؟

ـ كان يزور أمه في المقابر اليوم فلدغته عقرب.

ظهر التوتّر على وجه الحاج عبدالله بينما يُعدّل من جلبابه ويمضي إلى بيت صديقه القريب من المسجد.

طرقا الباب ففتحه عليّ واصطحبهما إلى والده الشاحب الوجه الزائغ النظرات، السقف ملء عينيه فلا يرى القادم إلا حين تحدّث الضيفان وصافحاه وهما يدعوان له بالشفاء.

جلسا بالقرب منه وكلماتهما الطيّبة ملء فيهما، وهما يقولان له: الحمد لله، ما شاء الله ستكون بخير غدًا.

لكنّ البطل مال بجسده نحو الحاج عبد الله وهمس في أذنه قائلاً بصوت خفيض:

ـ ابناي يا عبد الله، أوصيك بهما.

ارتاع الحاج وهتف فيه:

ـ ماذا تقول يا عبد الدايم! ستكون بخير، إنها مجرد لدغة عقرب يا رجل!

ـ أنا صرت عاجزًا، وهما ضعيفان، المؤامرات تُحاك عليهما.. الصهاينة يقفون بالباب وجنّدوا أخي عبدالحميد.

بدت علامة الدهشة على محيا الحاج، لكنها ما لبثت أن تحوّلت لشفقة:

ـ الصهاينة هناك بعيدون يا عبد الدايم، فقط اهدأ، إنما هو أثر السمّ.. حين يزول ستزول المخاوف، ثم إن عبدالحميد يُحبّك.

ـ ما تعلمته أثناء الحرب ألا تُصدّق ما تراه، فالزي المموّه يخدع الأعين، فقط ثق بإحساسك وحدسك، وعبد الحميد ليس الوحيد الذي أشعر بخيانته، هناك شبكة كاملة، شبكة نعلق بها كالأسماك المنخدعة.

نظر إليه الحاج عبدالله بشفقة قبل أن يربّت عليه قائلاً:

ـ كن بخير يا صديقي ودعك من الهواجس.

همّ بوداع صديقه مع الشيخ رمضان ومضيا، بينما التساؤل لا يفارقهما، بالتأكيد هو أثر الحمى.

* * *

الزفاف يوم ينتظره الجميع بلا استثناء، قد تتساقط كلّ الذكريات كوريقات من شجرة عمر عتيقة عصف بها خريف ثقيل، إلا تلك الورقة تظلّ صامدة بكل تفاصيلها.

وخاصة حين لا يكون عليك في ذلك اليوم أيّ عاتق أو جهد سوى المراقبة، عامر كان كذلك، يُراقب ومشاعره مضطربة، اليوم هو كالفرع الذي كُسر من أصله، بلا رفيق أو صديق، بلا أخ أو والد، حتى عمّه بدوي اعتذر عن الحضور.. يتعجّب لأمر عبّاس، أيّ نسب يروم إليه فيه وهو الآن وحيد.

يشاهد الولائم الممدودة والحضور الذين يظن أنهم جاءوا فقط ليطعموا، لا لأنهم فرحين.

الوقت يمر والتوتر يزداد وإسعاد تتزيّن، الآن ستُصبح زوجة، هي لم تعرف عامر كثيرًا، لكنّ أباها أمر وعليها السمع والطاعة.. لم تتعود أن تُعارض أو تحتدّ، كلّ فتاة تنتظر ذلك اليوم بالبِشر والفرح، وهي كذلك.. عامر كان قوي البنية وسيمًا رغم السمرة، مظهره الخارجي يجعله حلمًا لأيّ فتاة، لكنّها لا تعلم سريرته، لذلك فهي تثق في اختيار أبيها وحكمته التي جعلتهما من الأثرياء، رغم أنها تتذكر أيام الفقر حين كان والدها موظّفًا فقيرًا في وزارة السياحة بأخميم، تلك البلد الفقيرة، لم ترَ نفسها هناك، ولا حتى بعد أن عاد لمسقط رأسه حين استقال، هي لا تجد نفسها في أيّ مكان، انعزال أبيها عن كلّ ما حوله جعلها الآن هكذا بلا صديقات يُزيّنها يوم زفافها إلا صديقة أو اثنتين، فرحة الزفاف التي تراها في الأفلام لا تشعر بها في الواقع، لكن ما يضير حياتها وهي كذلك دائمًا، خط يبدأ وينتهي بنفس المسار دون اعوجاج على الفرحة أو انكسار على الحزن، هي فقط تسير بلا شعور أو مشاعر، ومن ذلك المنطلق هي مستعدّة أن تبيع روحها من أجل لحظة فرحة حقيقية، لذا أغمضت عينيها ورأت عامر فارسها الذي يحملها بين ذراعيه ويطير بها بعيدًا، أحبّت عامر الذي صنعته في خيالها.

حين هبط المساء وصارت بين ذراعي عامر القويتين وشفتاها منطبقة على شفتيه تمتصّ منهما شهوة بلا سعادة، لذّة بلا إحساس، حتى حين انطلقا بعيدًا إلى غياهب النشوة وفارقا واقعهما؛ كان هناك بداخلها شيء يقظ يؤرّق أحلامها..

السعادة حلم لا يتحقق حتى بين أحضان رجل.

## الإثنين ١٣ ذي الحجة ١٤٢٢/ ٢٥ فبراير ٢٠٠٢

السابعة صباحًا

هبط عليّ عن دراجته وطرق باب الحاج عبد الله الذي فتحه على الفور، وأخرج حماره الذي وضع عليه قفصين، وما إن رأى دراجة عليّ حتى ابتسم قائلاً:

ـ يا بني لم تُخلق شوارع قفط لشيء يسير على عجل.

ـ لماذا يا عمّاه؟ أليست مثل جميع البلدان؟

ـ كلا يا ولدي، الوعورة أشدّ والعجل أحمق لا يعرف كيف يتعامل معها.

امتطى الحاج حماره وبدآ رحلتهما في جمع البيض، كان الحاج يهتف كلما دخلا شارعًا: حووووووووووووم..

فيضحك عليّ ويسأل:

ـ ماذا تعني تلك الكلمة حووووم؟

أكثر من أربعين عامًا وعبدالله ينادي بها دون أن يسأل عن معناها أو حتى يعرفه، كلّ ما يفهمه أنه يُخبر الناس أنه هنا، لكنّ أسئلة عليّ دومًا تُحرجه ولا يعرف بماذا يردّ، فقرّر الهروب كعادته:

ـ كيف حال والدك؟ هل أصبح بخير؟

بدا القلق مصحوبًا بضيق على وجه عليّ وهو يقول:

ـ بل حالته تزداد سوءًا، صار يشكّ في كلّ ما حوله حتى أمي، أتعلم يا عمّاه؟ لقد أتينا بشيخ يقرأ عليه تعاويذه ربما كان ممسوسًا، فأعطانا أطباقًا صينية مكتوب عليها بلغة عجيبة وطلب أن نضعها على سطح المنزل كي يراها النجم، ففعلنا لكن يبدو أن النجم صار أعمى!

ـ أبوك ليس ممسوسًا لكنّ مشكلته نفسية، هو فقط يشعر بالعجز، ربما من الأحرى بكم اصطحابه لطبيب.

ـ عجز؟ أوَيكون المؤمن عاجزًا؟

تذكّر الحاج عبد الله عامرًا وشعوره بالعجز وهو لا يعرف مصير نبتته التي غادرته، فشعر بحنق وغضب جمّ، لكنّه تمالك نفسه قائلاً:

ـ نعم.

ـ نعم؟ وربنا يقول «أليس الله بكافٍ عبده»!

حينها لم يستطع الحاج عبد الله امتلاك نفسه، فبكى وأجهش وأوقف حماره، وكانت هناك أريكة على جانب الطريق فنزل عن مطيته وجلس عليها، وقال بصوت متقطع: فلنسترح قليلاً.

أنّب عليّ نفسه وشعر أنه أخطأ، ما كان عليه أن يُعيد أحزان الحاج، رأى زيرًا قريبًا، فذهب إليه وملأ السطل الذي عليه بالماء ثم أتى الحاج به:

ـ عمّاه، فلتشرب بعض الماء وهدئ من روعك، عامر سيعود.
بنظرات زائغة لا تكاد ترى بين الدموع مدّ يديه للكوب وظلّ يشرب، ثم قال:
ـ حتى وإن عاد، فما الجدوى؟ لم يعد عامر الذي ربّيته.

* * *

التاسعة صباحًا

مضى عمر عبد الدايم لعمله بعد أن ألقى نظرة على أبيه الزائغ النظرات الشاعر بالعجز الصامت الصارخ، لم يجلس طويلاً معه، هو أيضًا مثله منذ سنوات، كان يشعر بذات العجز حين اعتقله أمن الدولة.

يذكر تلك الليلة كأنّها الأمس، كانت ليلة من شتاء أسيوط في ديسمبر ١٩٩٧، حيث الفرائص ترتعد رغم الأغطية، وهو كان يُكبّل ذاته وتلحّف بكل ما أوتي من أردية فوقها طنّ من الغطاء ستر به وجهه من لفحات الهواء، ومصباح الغرفة مضاء فرفيق السكن مازال يقظًا، وغفلت عيناه وهي تتشمم رائحة خبز فاطمة والدته، فالآن مرّ ثلاثة أشهر منذ بدء العام الدراسي وقرب اختبار نصف العام وهو لا يستطيع العودة للأصل.

انتزعه من حلمه صوت ارتطام الباب الخارجي، فهبّ من نومه ينظر لصاحبه المرعوب الذي فزع من مقعده للخارج.. إنهم زوّار الليل، وما كان صوت الارتطام إلا بيادة أحد الجنود.

دلف الضابط الى الغرفة صارخًا في عمر ورفيقه:

ـ اهبطوا جميعًا للشارع... هيّا!

همّ عمر الذي مازال يحاول استيعاب ما يحدث بارتداء حذائه وتغيير ملابسه إلا أن أحد الجنود دفعه بكعب سلاحه صائحًا:

ـ ألم تسمع الباشا؟ هيّا!

هبط أدراج البيت يتعثر في خوفه تتبلل ثيابه من عرقه رغم ليلة الشتاء القارصة، ارتجافه كان الشيء المنطقي الوحيد في ذلك المناخ.

حافي القدمين مطأطئ الرأس ينتظر حضرة الآمر أن ينتهي من تفتيش المسكن، وما إن هبط حتى سرت ارتياحة في صدره، لم تكد أن تتبخر حين تحدّث الضابط:

ـ من يُدعى عمر عبد الدايم فليبقَ.. أما البقية فليعودوا إلى مساكنهم.

زُلزل عمر وشعر أن الأرض تميد به وهو يُحاول أن يتذكّر ما الذي فعله ولماذا هو.. لا شيء يستدعي أن يبقى، هو طالب عادي كبقية الطلبة، لا يقرأ إلا مناهج التعليم ولا يذهب للمسجد إلا للصلاة.. هذا ما كان يعرفه؛ أن من يقرأ وبخاصة كتب الدين يُعتقل، ومن يذهب للمسجد ويجلس ليقرأ القرآن تُكتب فيه التقارير، لذا في تلك البلد الغريبة كان مقتصرًا حتى بلغ السنة النهائية في كلية الحقوق.

يتذكّر كيف وضعوا عصابة فوق عينيه وحزموا رباطها حتى شعر بصداع وصار

الظلام بداخله أكبر.. ظلام من لا يدري شيئًا... وقفت الشاحنة وسيق بكعوب الأسلحة إلى حيث ما لا يرى، حتى هدأ الركب ونزعوا عنه العصابة، كان محتجزًا كبيرًا استطاع التعرّف فيه على بعض الطلبة القفطيين أبناء بلدته، وجميعهم على وجوههم تتجلى علامات الاستفهام والتعجّب، حتى كأنّك ترى أنوفهم مستقيمة أسفلها نقطة لا تكاد تُرى هي أفواههم التي صمتت حتى عن الصراخ.. الرعب يتجلى والأسئلة تسري بدواخلهم تصرخ في عظامهم ولا تتخطّى حناجرهم.. إلا أن كلّ ذلك صمت مع أول دلو لمياه باردة في تلك الليلة الشاتية وهي تُسكب على ملابسهم.

انتزع أحدهم نفسه من صمته وقال كمن له خبرة فيما يحدث ليبعث فيهم الطمأنينة:

ـ إخوتي في الله، حين يتمّ احتجاز كلّ ذلك العدد فهذا يعني أن هناك شيئًا مجهولا يُريدون معرفته، وهم لا يشتبهون فيكم بقدر ما يريدون استجوابكم لمعرفة ذلك الشيء.. لن تبقوا هنا طويلاً، هي أيام معدودة، لذا فلنتفق أن نحافظ على نظافة الحجز حتى إن أردنا الصلاة استطعنا.

ابتسم عمر، كانت تلك أول مرة يبتسم في تلك الليلة «يريد الصلاة..هنا؟ وما الذي أتى بنا هنا غيرالصلاة»، قالها لنفسه وصمت قبل أن يرتكن إلى أحد الجدران، لكنّ برودتها نهشت عظامه فقام عنها..

دلاء المياه الباردة التي تُغرقهم لا تنتهي، وفي الصباح استُدعي للاستجواب.

الصراخ من الغرف المجاورة يقتله قبل الوصول لغرفته، فهو صار يعلم ما ينتظره.. كان ضابطًا تبدو عليه الوحشية وتتساقط العصبية من أنفاسه وهو يصرخ في وجوه جنوده قبل أن يُوجّه له الحديث:

ـ اسمك وبلدك وفي أيّ كلية تدرس.

ـ عمر عبدالدايم، قفط، أدرس في كلية الحقوق السنة النهائية.

ـ آه قفط.. بالتأكيد سمعت عن الحادث الإرهابي الذي هزّ أرجاء مصر الشهر الماضي.

ـ نعم، حادث الأتوبيس.

ـ أنت تقرأ الصحف إذن، ذلك جيد وسيُسهّل علينا الكثير، فماذا تعرف عنه؟

ـ حادث إرهابي، قاموا بتفجير أتوبيس سياحي راح ضحيّته عشرين سائحًا وأحد المنفّذين للعملية.

ـ فهل تعرف المُنفّذ الذي قُتل؟

ـ حسب ما قرأت أنه لم يتمّ التعرف عليه لأن الجثّة كانت محترقة.

كان عمر يُجيب بطلاقة وصدق.. لم يتلاعب أو يُظهر جهلاً كما نصحه رفاقه.. هو ابن البطلٍ وحفيد البيه، ومن في مثل هيئته لا يخشى الصدق، فهو حقًا لم يفعل شيئًا.

ـ بل عرفناه.

هكذا قال الضابط قبل أن يخرج سيجارًا يلوكه بين أسنانه ويُشعله، ثم أمسك بصورة ملقاة على أطراف مكتبه قائلاً:

ـ أتعرف صاحب تلك الصورة؟

نظر إليها عمر وتمنّى في نفسه ألا يكون يعرفه، إلا أنه عرفه، فهو صديقه «موسى حجازي».

ـ نعم أعرفه، هذا موسى حجازي من إحدى قرى قفط، كان يسبقني بعام في المدرسة الثانوية والتحق بكلية الهندسة هنا في أسيوط.

ـ فهل تعرف أين هو الآن؟

ـ لم أره منذ عام.. بل لا أحد رآه كلّ تلك الفترة منذ رسب السنة قبل الماضية.

لم يتوقع عمر تلك الصفعة القوية التي انهالت على وجهه ونزعته من مقعده والضابط يصرخ فيه:

ـ أنت تكذب!

دموع حفيد البيه انسالت من بين محجرها غصبًا ولسانه توقّف عن الحكي ولم يعرف ماذا يقول، أكان الجهل أبلغ؟

ـ أخبرني ما تعرفه عنه.

ـ أقسم إنني لا أعرف شيئًا غير ما قلت.

صفعة أخرى يخلفها صوت صيحة غضب ينادي أحد الجنود:

ـ حتى الآن أنا أكظم غيظي فلا تكذب!

ـ لا أكذب!

ـ أخبرني انطباعك عنه.

حاول عمر أن يتمالك نفسه وتحدّث بصوت متهدج:

ـ موسى شاب شهم لا تطلبه ويخذلك..لا تسأله ويرفضك..لا تعتمد عليه ويُقصّر.

هذه المرة هوت الصفعة أشدّ من سابقيها، تبعتها ضربات من كعب سلاح الجندي الذي يقف خلفه بعد أن أشار له الضابط بذلك، بينما قال الأخير:

ـ ذلك الشاب الذي تمدحه قتل عشرين شخصًا.. إنه صاحب الجثّة المحترقة وتعرّف عليه أهله.

كلّ ما جال في خاطر عمر في تلك اللحظة وطعم الدماء الصدئ في فمه أن ذلك مستحيل.. لم ينطق، حاول أن يصدّ الضربات لكنّها تنهال عليه دون توقف.. ضربات أيقظت رجلاً بداخله لا يعلمه... موسى قَتل؟

ذلك الشاب المبتسم الذي اصطحبه مع رفاقه القادمين من قفط أول مرة حتى اطمأنّ عليهم..

موسى قَتل؟ ذلك الذي لا يُفوّت صلاة الجماعة قطّ.

في وقت من الأوقات كان عمر يتمنى أن يُصبح كموسى، لكنّه الآن يتلقى صفعات وضربات لأنه يعرفه فقط..

أسبوع مرّ في تلك العذابات حتى تأكّدوا أنه لا يعرف شيئًا، فتركوه ملقى أمام مديرية الأمن وهو مازال حافي القدمين.. ملابسه مبلّلة بالدماء وقلبه صار في سجن موصد..

قرّر ألا يخبر أهله بماحدث.. ماذا يقول لهم؟ ضرب وصفع والتهب قفاه بأصابع الجنود وكعوب الأسلحة؟

مضت الأيام وهو ليس في داخله إلا التساؤلات.. وكلمتان: «موسى قَتل».

إلى أن أتى يوم الفصل، «الاختبار»، السؤال الأول:

«المتهم بريء حتى تثبت إدانته» قاعدة قانونية مشهورة، اذكر القوانين التي تتماشى مع دستور ١٩٧١ لحفظ حقوق المتّهمين؟

حين قرأ السؤال لم يتمالك نفسه من الضحك، صار يضحك ويضحك حتى أن المراقبين هرعوا إليه ليأمروه بالصمت حتى لا يُشوّش على زملائه، إلا أنه لم يكفّ عن الضحك، فقط كتب ثلاث كلمات: «موسى كان محقًا»، وردّد الجملة مرارًا قبل أن يترك لجنة الاختبار ويمضى ناظرًا إلى اللافتة التي كُتب عليها «كلية الحقوق»، وصرخ قائلاً «عن أي حقوق يتحدّثون! نحن بلا حقوق».

هو من تلك النوعية من البشر الذي يظن أن أيّ حرب تكون بين طرفين أحدهما على حق والآخر على باطل، ومادام الأمن قد ظلمه فبالتأكيد الحق مع من هم ضده..

لذا اعتنق ذلك الفكر وتتلمذ على يد أستاذه «سليمان» مدرّس اللغة العربية، وكان طالبًا نجيبًا، فلقد درس وحفظ جميع الكتب التي أعطاها له، ونجح أستاذه في إقناعه بالعودة للكلية التي رسب فيها، واستطاع الحصول على شهادته، حتى بعد أن رحل سليمان بالإعارة للسعودية؛ ترك تلميذه النجيب يسير على الدرب ويستقطب آخرين.

وها هو الآن بعد خمسة أعوام من تخرجه يصل لمحل عمله، كان زميله في غرفة المكتب «يوسف جرجس» قد سبقه، رمقه بنظرة باردة ومضى لموقعه جالسًا دون أن يُلقي التحيّة عليه، إلا أنه قال:

ـ لماذا لم تُهنّئني بالعيد؟

ـ و لماذا أُهنّئك؟

ـ لنشر المحبة بين البشر، أليس إنجيلكم يدعو لذلك؟

ـ إنها معاملة بالمثل، أنت لم تُهنّئني الشهر الفائت بعيد الميلاد.

ـ لأنها حرام.

ـ إن كنت تُحرّم تهنئتي فلماذا تلومني وأنت تعتبرني لا شيء؟

ـ فلتكن شيئًا إذن،ها أنا أدعوك للإسلام.

تعالت ضحكة يوسف الساخرة العالية لتُردّدها جنبات المكتب، قبل أن يقول:

ـ إسلام؟ وأنت من تدعوني؟

ـ ولماذا لا أدعوك؟

اعتدل يوسف ونظر مباشرة إلى عمر وقال بجدّية:

ـ اصغِ إليّ يا عمر، لو كُتب لي أن أدخل الإسلام فبالتأكيد لن يكون على يديك.

ـ لماذا؟

ـ لأنك لا تدعوني إليه حبًّا فيّ أو اعترافًا بي، بل كلّ ما تريده هو أن يقال إن عمر كان سببًا في إسلام يوسف فيذيع صيتك.

ـ أوَشققت عن قلبي؟

ـ بل رأيته في عينيك وأفعالك، رأيته في كوب الماء الذي تُغلق عليه درج مكتبك كلما خرجت حتى تطمئن أنني لا ألمسه، أسمعه في أحاديثك دائمًا حين تقول عنّي أنني ذو رائحة نتنة وأنني آكل الخنزير، كلّ هذا غير وصفك بأنني كافر.

ـ لست أنا من يقول إنك كافر لكنّه القرآن!

ـ لست هنا في موقع جدال، وحتى إن أردتُ الجدال ستكون أنت الأخير على قائمتي، المحصّلة دعوتك مرفوضة.

ـ أتدري يا يوسف؟ لقد صار العمل كريهًا.. لا أعرف لماذا جعلوني أقتسم معك غرفة واحدة، ربما تكفيرًا لذنوبي، كلا ليس كذلك، ذنوبي ليست بتلك الكثرة فأنا خير من كثير، ربما لتزداد درجاتي، نعم إن بقائي معك هنا هو سُلّم للدرجات العُلى، أنت لا شيء حقًا إلا سلّم!

ضحك يوسف ضحكة مجلجلة وأكمل كتابة تقاريره وهو يُحدّث نفسه «أنا سُلّم».

* * *

استيقظ من نومه، وأزاح الغطاء عن وجهه وراقب زوجته باهرة الجمال التي ما زالت تغط في نومها، قبل أن يهبّ من المهد.

رغم أن زفافه لم يمرّ عليه إلا بضعة أيام إلا أن عامر لم يكن يشعر بالسعادة التي كان يحلم بها، ربما إحساسه بأنه غريب في ذلك البيت وتلك البلد، أو أن إيمانه بأنه قد انقطع من شجرة الرحماني للأبد، إسعاد ليست بالتأكيد السبب، فأحد أحلامه أن يتزوج من جميلة مثلها.

هبط الدرج وجلس على الأريكة في صدر المنزل، بعد أن أوقد النار في بعض الفحم ليصنع جمرات تحرق المعسّل.

أعدّ أرجيلته وسحب أنفاسها لتحرق صدره، كي تُزيح عنه بعض الضيق الذي يشعر به منذ استيقظ.

أتاه عبّاس الزهيري، وجلس بجواره يشاركه أنفاسه قائلاً:
ـ ما بالك استيقظت مبكّرًا؟
ـ الساعة العاشرة يا عمّاه.
ـ لكنّك ما زلت عريسًا جديدًا.
ـ دعك من ذلك وأخبرني متى نرحل لقفط؟
ـ الجمعة القادمة، فلتستعد.
ـ حسنًا.
ـ لكن عليك أن تُطيعني في كلّ ما سآمرك به.
ـ بالتأكيد يا عمّاه.
ـ واعلم أنني لن أُكلّفك قرشًا في كلّ ذلك، أتعلم أن البعض يقوم باستئجار جهاز يقيس الفراغات في الأرض من البعثات الأثرية، وأن ذلك الجهاز استئجاره يصل لثلاثين ألف جنيه في الليلة، وربما بعد أن تستأجره لا تجد شيئًا، والبعض يستخدم الزئبق الأحمر الذي يتخطى جرام واحد منه المليون جنيه، أنا لن أطلب منك شيئًا، لكن فقط اتّبع أوامري.

أومأ عامر برأسه إيجابًا، فهو لا يملك شيئًا من المال يُوفّر له استعمال تلك الأساليب، وليس أمامه إلا طاعة عبّاس الزهيري.

قاطعهم صوت خطوات إسعاد التي استيقظت من نومها وهي تطرد من داخلها بقاياه متثائبة، ثم تُكمل طريقها نحو المطبخ بعد أن ألقت عليهما التحيّة.

وفي المطبخ كالعادة تعود الشجون، شيء ما بداخلها يكره عامر، لا تستسيغه، الحقيقة أنه يعاملها بودّ، لم ترَ منه ما يُثير كلّ ذلك.. لكنّ أنامله قاسية، الضيق ينفجر بصدرها حممًا بركانية حين تُداعبها أصابعه كلّ ليلة، تريد الصراخ ولا تستطيع.

لماذا؟ هي لا تعلم، هل الزواج مرير لتلك الدرجة، إذن ما الذي تُشاهده في الأفلام؟ لماذا تُثار حين ترى ممثلاً عاري الصدر، أين تلك الإثارة وهي على فراش عامر؟

دمعات تتساقط من وجهها ليستقبلها إناء اللبن دون أن تعرف لها سببًا، وبينما هي كذلك لم تشعر بوالدها الذي اقتحم عليها خلوتها في المطبخ ليسألها:
ـ هل أنتِ سعيدة يا إسعاد؟
لم تُجبه، فقط أكملت عملها في هرس الفول ومتابعة اللبن، فأكمل:
ـ ما لكِ يا بنيتي؟ لا أشعر بأنكِ سعيدة، أريدك أن تعلمي أن كلّ ما أبحث عنه في حياتي هو سعادتك.
ـ لا أعرف يا أبي، لم أعد أشعر بشيء، الحياة صارت جحيمًا بداخلي ولا

أعلم لها سببًا.
أطرق رأسه وهو يضع بين يديه الخشنة أناملها الطريّة الممسكة بالشوكة، ويهرس معها الفول، ثم ينظر مباشرة إلى عينيها قائلاً:
ـ أنا أعلم سبب ذلك، ولديّ الحلّ.
تابعته باهتمام قبل أن تجحظ عيناها وهي تستمع إليه بذهول واندهاش.

## الجمعة ١٧ ذوالحجة ١٤٢٢/١ مارس ٢٠٠٢

مازال الحاج عبد الله ينظر في وجوه المصلّين حوله في صلاة الجمعة، مازال يؤمّل نفسه أن يرى وجه عامر بينها.

بينما الشيخ رمضان مازال يبحث عن تلك الحلقة المفقودة التي سقطت من نفوس الناس وحوّلتهم لأشباح، مازال يُذكّرهم بالودّ والرحمة، ينظر للصف الأول تحت منبره حيث جلس درويش الشاطر المرابي بجوار عمر البيه الملتحي وأصدقائه، وبعدهم عوض قاعود وأبناء عمومته، جميعهم يُطرقون رؤوسهم متصنّعين التأثر، هو يشعر بأنهم يخفون غير ذلك، بل إن عمر البيه وأصدقاءه لا يعتقدون في الشيخ رمضان أنه رجل دين، ولولا إجبارهم على الاستماع إليه خطيبًا لاعتزلوا الصلاة خلفه، أما درويش وعوض وغيرهم فإنما تذهب عيونهم بعيدًا نحو الساعة تُراقب عقربها، حين شعر الشيخ بذلك اختصر ما يودّ قوله ونزل عن منبره لتُقام الصلاة التي ما إن انتهت، حتى أسرع رجل من الخلف في اختراق الصفوف وصعد إلى المنبر.. إنه الأستاذ مهدي السعدي مدرس اللغة العربية، وقف على المنبر، نفخ في مكبر الصوت حتى تأكّد أنه يعمل، قبل أن يفتح عينيه ليرى الناس أسفل المنبر، الرؤية من أعلى المنبر يشوبها الضباب، وهو يكاد يتبين الناس التي تغيّرت وجوههم، فكوكهم استطالت وآذانهم كبرت، صاروا أشبه بالأنعام بينما هو يراهم بخوف وذهول ما لبث أن تحوّل لفخر حين تحسس وجهه وتأكّد أنه كما هو لم يتغير.. قال:

ـ أنتم تعرفونني جيّدًا، أنا مهدي..

وجوههم تزداد بشاعة.

ـ أنا مهدي..

أنوفهم صارت حمراء قميئة.

ـ أنا مهدي..... أنا المهدي المنتظر!

بعد كلمته الأخيرة صارت الهمهمات تعمّ المسجد، ثمّ ما لبثت أن تحوّلت إلى أصوات غاضبة مزعجة، وهو يُكرّرها، بينما هبّ عمر البيه ومعه بعض صحبه وطرقوا بغضب المنبر الخشبي بأيديهم وأصواتهم الآمرة تقول:

ـ اهبط أيها الشيعي اللعين!

بينما الشيخ رمضان اخترق طريقهم إلى المنبر وهتف فيهم:

ـ توقّفوا واصبروا، اتّقوا حرمة بيت اللّه

ـ لم يتّقها هو!

هكذا ردّوا عليه..

اخترق الحاج عبد الله الصفوف حتى وصل للمنبر ووقف بجوار صديقه الشيخ رمضان حائلاً بين الشباب ومهدي حتى استخلصوه من بينهم، ما منع

الشباب عنه شيء إلا احترامهم للشيخ والحاج رغم اختلافهم الدائم معهما.

خرج الحاج عبد الله والشيخ رمضان مصطحبين مهدي معهما لبيت الحاج، وعلى جنب الطريق يتبعهم الشباب الذين وقفوا خارج الدار منتظرين خروج مهدي منه لتأديبه.

أعدّ الحاج عبدالله أكواب الشاي وحمله إليهما، بينما يستمعان إلى ما يقوله مهدي:

ـ ما إن صعدت للمنبر حتى رأيت البشر كلّهم كالأنعام، رأيتني أفضل من الجميع وخير من الجميع، لو كان هناك مهدي فبالتأكيد سيكون هو من بقي يحمل وجهه البشري.

احتسى الشيخ رمضان رشفة من كوب الشاي بينما يقول:

ـ إنها فتنة المنبر، ما إن تصعده ويصبح الناس أسفل ناظريك حتى يتملكك الشيطان ويُدخل في صدرك أنك أفضل الخلق أجمعين، ما كان لك أن تفتح عينيك.. لكن ما الذي دعاك لصعود المنبر؟

ـ الألم، الحسرة، المرارة، لم أعد أحتمل، أريد أن أبثّ حزني للجميع، أريد أن أزيح جبل الألم من على صدري!

ـ أي ألم؟

ـ أي ألم؟ صدري صار رماد حريق من الآلام، ابن عمّي من كانت معه حيازة أرضي أخذ بها رهنًا من بنك التنمية، وما لبث أن أضاعها دون إذني ولم أعرف إلا بعد أن ضاعت، تقدّمت بطلب للإعارة وكنت الجدير به، لكنّ الجهات الأمنية أعطتها سليمان بغير وجه حق، أرادوا أن يتخلّصوا منه حتى لو سلبوا حقي وكافأوه به، فهل رأيت ظلمًا أكبر من ذلك حين يُكافأ المغضوب عليه ويأخذ حق الساكت! وأخيرًا ابني حسام ضاع ولم يعد ثانية، ثم تسألني أيّها الشيخ عن الألم؟

ربّت الحاج عبد الله على كتف مهدي وطلب منه أن يصبر وأن الله سيُعوّضه خيرًا، قبل أن يقول:

ـ يا بني لا تستخدم المنبر لقضاء حاجة خاصة بك، المنبر ليس ملك أحد ولن يكون، استدرار التعاطف لا يحتاج أن تصعد فوق رؤوس الناس، إنما يحتاج الوصول لقلوبهم، وكما قال لك رمضان للمنبر فتنة.

قضى مهدي بعض الوقت يستمع لنصائح الشيخ والحاج وتوصيّاتهما له بالتسبيح والتقرّب من الله حتى يعود ذلك بلسمًا على قلبه، قام للرحيل فخرجا معه، كان عمر وأصدقاؤه في الخارج منتظرين، وما إن رأوا مهدي حتى تقدّموا نحوه، إلا أن الحاج عبدالله استوقفهم:

ـ دعوه فهو ضحيّة المنبر.

لم يفهموا معنى كلماته لكنّهم استمعوا لها احترامًا وتركوا مهدي، بينما قال عمر:

ـ كيف ظنّ نفسه كذلك، وهو ليس أفضلنا تقرّبًا وتودّدًا إلى الله حتى يختاره من بيننا مهديًّا!

ابتسم الشيخ رمضان بينما يقول:

ـ إن موسى وهو كليم الله ومن أولي العزم من الرسل قد أخذ العلم من عبد صالح، فلا يدّعي أحد أن له الأفضلية في العلم والمقام على أحد، فلا أنت شققت عن قلبه ولا تعلم سريرته.

لم يستطع عمر الإجابة فرحل هو وأصدقاؤه، بينما نظر الحاج عبد الله لصديقه قائلاً في حيرة:

ـ الوساوس تزداد يا صديقي في البلد، صرنا مفكّكين بسبب وساوسنا، عبد الدايم ثم مهدي، حتى عمر وأصحابه يوسّوس لهم الشيطان أنهم الأفضل، إن الحرب صارت شعواء في نفوسنا.

ـ هي كذلك منذ الأزل يا صديقي، لكنّها تزداد حين نبتعد عن الله.

ودّع صاحبه وهمّ بالعودة إلى الدار إلا أنه رأى عليًّا قادمًا فاندهش، لكنّه اصطحبه معه للداخل.

ـ ماذا أتى بك يا عليّ الآن؟

ـ الضيق يا عمّاه، لم أعد أحتمل.

ـ اهدأ يا بني، كلّ ضيق مآله للفرح وكلّ كرب يسير إلى الفرج.

ـ لوثة أبي كلّ يوم في ازدياد، والهوّة بيني وبين عمر صارت سحيقة، وأمي انطوت على نفسها كآبة، عادت يتيمة، لم نعد تلك الأسرة التي أعرفها، فلماذا كلّ ذلك، لماذا؟

كرّر لماذا بصوت مرتفع غاضب، فأتاه الردّ من رجل يقف على باب الدار قائلاً:

ـ لأنكم فقراء.

نظرا إلى مصدر الصوت فوجداه عامر الذي عاد لتوّه، وكان ردّ فعل الحاج عبدالله غريبًا، فبدلاً أن يركض نحوه ويعانقه، لم يبرح مكانه وقال في برود:

ـ عن أي فقر تتحدّث؟ أولاً هم ليسوا فقراء بالطريقة التي تظنّ، فجدّهم البيه ترك لهم من الأراضي الكثير، وأما فقر الإحساس فهم أبعد ما يكونون عنه، بل انظر إلى نفسك في المرآة؛ ستفهم أنهم ليسوا فقراء.

ـ نعم يا أبي، نظرت لنفسي في المرآة، رأيتني فقيرًا فبحثت عن الثراء.

ـ صدقت، أنت فقير في كلّ شيء، كلّ شيء، فقير القلب، فقير الروح.

ـ وفقير المال.

شعر عليّ بالحرج وهو يُراقب الأب يُعاتب ابنه، فاستأذن وهمّ بالرحيل، بينما عبد الله مازال يُردّد:

ـ ما الذي عاد بك؟

ـ أنت يا أبي.

ـ أنا؟ وهل كنت أنا هناك حين قررت وتزوجت؟
ـ يا أبي إنها إرادة الله، وأنت من كنت تقول إن الزواج قسمة يأتيك دون سبب أو علّة.
ضحك عبدالله بسخرية قائلاً:
ـ وهذا هو الشيء الوحيد الذي تعلّمته منّي؟
أطرق عامر رأسه بينما أكمل الحاج مستفسرًا:
ـ أين زوجك؟
ـ لقد ذهبت مع والدها للسوق، طلبا منّي أن أسبقهما وسيأتيان بعد أن يشتريا بعض الأغراض.
ـ لا أريد أن أراهما، فلا تُدخلهما داري!
ـ أبي! إنهما أسرتي!
ـ بل لا أريد أن أراك أيضًا، فارحل!
احمرّ وجه عامر غضبًا، هذه أول مرة يرى فيها والده غاضبًا هكذا، فانطلق يجمع حاجياته ويستعدّ للرحيل، وما إن هبط وهمّ بالخروج من الدار حتى رأى عبّاس الزهيري قادمًا مع إسعاد يجرّ فرسًا.
ـ من أين حصلت على ذلك الحصان..
هكذا سأل عامر.
ـ اشتريته من السوق.
ـ لماذا؟
ـ ستعرف، لكن بعد أن أقابل والدك.
ـ أبي غاضب منّي ولا يُريد أن يراني أو يراكما.
ـ لا عليك يا بني، سيفهم ويعود إليك، فلنتركه الآن، خذ بلجام ذلك الفرس وامتطه ثم دعه يركض، هو يعرف أين يقف، المكان الذي سيتوقّف فيه هو بداية السرداب.
ـ أيّ فرس ذلك الذي يعرف طريقه؟
ـ لا تسأل، فقط افعل ما أقوله لك.
ـ لماذا أنا الذي يجب أن يمتطيه؟
ـ هل أنت خائف؟ أم إنك لا تُجيد الفروسية؟
ـ أنا أفضل فارس في مرماح الشيخ ثابت لكن...
قاطعه قائلاً:
ـ إذن لا تسأل، امتطِ الحصان وانطلق.
انطلق الحصان وعليه فارسه راكضًا بكل قوة يطأ الأرض بعنف، دون أن ينتبه أن أسفل التراب عظام نخرة وفوق التراب جيف قذرة، الكلّ أموات والحصان

وفارسه وحدهما الأحياء، هذا ما جال بخاطر عامر وهو يقفز مع قفزات الجواد، حتى سقط من يده اللجام من قوة الانطلاق، صار الفرس يقوده بلا قيد، لم يهتم عامر باللجام ولم يُحاول أن يمسكه مرّة أخرى، فقط انسجم مع المغامرة، كلّ الأصوات حوله صامتة إلا صهيل فرسه، ضربات قدمه القوية فوق الأرض وهو يُغادر المدينة نحو الشرق، إلى أرض غير معمورة، تربة صفراء ترابها ناعم، وعند بيت مهجور توقّف فجأة فأسقط عامر، الذي صار يرى الأرض تقترب رويدًا من وجهه الذي ينكفئ في التراب، شعره المتفحّم صار رماديًا، كالرماد الذي يتبقّى من جمرات اللهب بعد أن تأكل المعسّل، في النهاية يجفّ المعسل والرماد هو كلّ ما تؤول إليه الأنفاس. قام من فوره؛ فلحسن الطالع لم يُصب بسوء، نفض عن ثيابه التراب وتلمّس بيده الكدمات البسيطة المنتشرة في جسده، تأكّد أنه بخير واستند بظهره على جدار المنزل وهو فاغر فاه يُراقب الحصان الذي ركض بعيدًا نحو الخلاء.

بينما عبّاس وابنته يتابعانه بناظريهما ويسرعان خلفه، إلا أن إسعاد وقفت ثم قالت لأبيها:

ـ لن أستطيع يا أبي أن أُنفّذ أمرك هذه المرة، أريد الطلاق.

توقّف عبّاس ونظر لابنته بدهشة ما لبثت أن تحوّلت إلى نظرة حانية وهو يُمرّر أصابعه على وجهها قائلاً:

ـ أنا أعلم صعوبة ذلك، لكنني أريد سعادتك.

ـ أتظنّ أن هذا ما سيجلب لي السعادة؟

ـ نعم، لن يرحمنا إن لم تفعلي ذلك.

ـ لقد اعتدت الألم.

ـ وآن للألم أن يُغادرك، امنحي نفسك متنفسًا، إن كلّ ما نحيا فيه الآن لأننا استطعنا أن نتغلّب على الألم.

ـ وكلّ ما نحن فيه الآن لا يمنحني السعادة.

ـ إذن فلتُجرّبي، ربما كان هو السبيل الوحيد للراحة.

نظرت إليه وعيناها تترقرق بالدمع، لترى ديار قفط كأنّها أشباح أطلال متراقصة يعلوها دُخّان كأنها تحترق. لم تستطع أن تُسرع بل سارت في تؤدة حتى بلغا البيت المهجور.

حين وصلا لعامر صمتا عن حديثهما، وأدار عبّاس دفة الحوار لاتجاه آخر، فسأل عامر:

ـ لمن هذا البيت؟

ـ مرعي القط.

ـ يجب أن نشتريه، هل تتوقّع أن يبيعه لنا؟

ـ لا أعلم، لكنّ المال يفتح أي طريق مغلق.

ـ حسنًا، فلنذهب إليه من فورنا.

لملم الثلاثة أنفسهم وقطعوا طريق الذهاب لمنزل مرعي القط في غرب قفط، وما إن وصلوا وسألوا عنه، حتى خرج ابنه لهم وأخبرهم أن أباه الآن ليس موجودًا، إن أرادوه فليذهبوا إليه على شاطئ الترعة.

شكروه وذهبوا.

ترعة الخمسة أعين كما يسميها أهل قفط، كانت خضراء عكرة، بعض الأبقار تغتسل وتستحم فيها، وبعض الرجال هناك يجلسون بالقرب منها يتبادلون سجائر البانجو، وهناك في اليسار من يقضي حاجته، حين لمح عامر مرعي، أسرع إليه يتبعه الآخرون، كان يجلس بهدوء يشحذ بصره نحو نقطة ما، متحفّزًا كجندي في محل خدمته، عِمّته الضخمة تُخفي شعره وجبهته، فأول ما يطلّ منه عيناه وهو صامت.. ما لبث أن وقف ببطء حتى أصبح على وضع الانقضاض، يبدو أنه يهمّ بفعل شيء ما. نظر الجميع إلى الجهة التي يترقّبها فلم يروا شيئًا في البداية، لكن مع التدقيق رأوا ورنًا ضخمًا بلون الأحجار حول الترعة، يتخفّى بين العشب ويستمتع بشمس الشتاء، ففهموا ما يريد مرعي فعله. وكان رد فعل عبّاس سريعًا، إذ همّ في اتجاه الورن دون أن يُحدث صوتًا، ثم جلس بجواره ببطء وردّد شيئًا ما..حينها ارتعب الورن وأراد الركض بعيدًا ثم ما لبث أن تسمّر.. فطوّقه عبّاس بذراعيه كما يحتضن الرجل زوجته، قبل أن يلحق به الآخرون.. حينها تسلّل الرعب داخل مرعي، من يكون ذلك الرجل الذي اصطاد الورن بيسر مبالغ فيه، بل إن الورن أطاعه، أما عامر فلم يتعجب، فقد طرد كلّ المشاعر من داخله منذ قابل عبّاس ورأى حصانه.. حمل مرعي الورن بعد أن أحسن تقييده وقاد الجميع نحو منزله، وبدأ عبّاس الحديث:

ـ ماذا ستفعل بذلك الورن؟

ـ سأُحنّطه وأُعلّقه على باب المنزل حتى يُخيف اللصوص ويطرد الغرباء.

ضحك عبّاس قائلاً:

ـ لصوص هذه الأيام لا يُخيفهم ورن.

ـ حتى وإن كان فإنه سيجلب لي الفأل الحسن.

ـ ونحن أتينا إليك للفأل الحسن، نريد شراء بيتك المهجور في البقعة الشرقية.

كانت هذه لحظة دخول ابن مرعي يحمل الصينية عليها أكواب الشاي، كانت فرصة لمرعي كي يُفكّر في أمر ذلك الغريب الذي أتى مع ابن الحاج عبدالله، وأسر ورنًا ضخمًا بهذا الحجم بمنتهى اليسر ودون حتى أدنى مقاومة.

ذلك الرجل مخيف، لن يجسر أن يقاومه، كالورن سيقع بين براثنه، لكنّه لن يتنازل عن حقّه في المال إن أُجبر على البيع، البيت مهجور حقًا ولا يُفيده أدنى فائدة، ربما بيعه أفضل، لكن فليدفعوا في المقابل ما يليق، حين طلب مرعي مبلغًا مبالغًا يوازي الضعف لم يعترض عبّاس، لذلك أبرموا العقد في ذات اللحظة.

بدأوا في تنظيف الدار وتجهيزه للسكنى، قبل أن يشير عبّاس لبقعة في إحدى غرفاته قائلاً:

ـ سنبدأ الحفر من هنا، لكنّ اليوم راحة وبداية من الغد سنعمل، فلنُجهّز أدواتنا، معول وحبل وكشّاف للضوء وموتور لسحب الماء، أنت تعرف أن قفط تسبح فوق المياه الجوفية وماء المجارير، وهذه المياه ستعوق بحثنا، وأشياء أخرى سأُدوّنها لنحضرها.

ـ كلّها أشياء بسيطة، عن نفسي لديّ معول في متجري صنعته بيدي، حديده ثقيل، وهو حادّ كنصل سيف.. غدًا سأحضره.

## الخميس ٣٠ ذي الحجة ١٤٢٢/١٤ مارس ٢٠٠٢

استيقظ سيّد عبد الحميد البيه ذو الاثني عشر عامًا متأخرًا عن ميعاد مدرسته، فهبّ فزعًا من نومه، هو لم يكن خائفًا من التأخّر من أجلّ التعلّم أو مقابلة أصدقائه، لكنّه كان يريد أن يرى إكرام، إكرام الناضجة مبكرًا، هي حلم كلّ مراهق في فصله، إلا أن شهوته بها تبلغ مبلغها، لذلك هبّ فزعًا، طرق باب عمّه عبد الدايم حتى فتح له عليّ، استأذنه أن يستعير دراجته فوافق.

انطلق بالدراجة يقطع الشوارع الضيّقة، يعصف بالمياه القذرة التي تُغرق الطرقات حتى وصل لمدرسته، لم يتنهّد أو يستريح إلا حين جلس على مقعده بجوار أصدقائه؛ جاد درويش الشاطر، ربيع عوض قاعود، مجدي مهدي السعدي.

الأربعة كانوا يُشكّلون تنظيمًا أشبه بالعصابات، يلهون معًا وأحيانًا يتسلّقون سور المدرسة في النقطة المواجهة لنافذة حمّام الفتيات ـ لم يفهم أحد لماذا بُني حمّام الفتيات قريبًا من السور، لكنه حال كلّ شيء غير مخطط له ـ كانوا دومًا يتلقّون التأنيب من مدرّسيهم، وكثيرًا ما طُردوا من المدرسة حتى يأتي أولياء أمورهم.

لكن في الفترة الأخيرة انطوى سيّد على نفسه وأصبح يهيم بإكرام مع نضجها المبكّر الذي لا يناسب سني عمرها، كانت عيناه لا ترى شيئًا غيرها، يخترقها ببصره في كلّ حين، يتفحّص كلّ شبر في جسدها رغم أن صديقه جاد أخبره «لا تسمو بحلمك عاليًا، ففي بلدنا لا يتزوج الرجل من هي في مثل عمره، ومثل إكرام ونضج جسدها لن تبقى طويلاً بلا زوج، ربما بأقصى تقدير ثلاثة أعوام قادمة، بينما أنت ستكون طالبًا بين جدار فصلك في المدرسة الصناعية».. حتى حين دخل مدرّس التاريخ وشرع في شرح حادثة دنشواي، وصار يتحدّث عن المغبونين الذين ينقادون إلى المشانق في كلّ حين؛ لم يرفع بصره عنها. كان ذلك المدرّس يُحبّ الشعر، لذا كتب لهم على السبّورة «دنشواي الحَمَام (فتح الحاء والميم) والحِمام (بكسر الحاء)»، والحديث صار موصولاً عن صيد الحمام الذي تساقطت جثثه حِماما على المصريين، بينما هو يشرح تفصيليًا كلّ شيء كان يلحظ تعلّق عيني سيّد بإكرام طيلة الحصّة، فاستشاط غضبًا وسأله بلهجة آمرة صارخة:

ـ سيّد، أخبرني عن ماذا نتحدث!

تلجلج الولد وهو ينظر لما حوله ينتظر أن يُمدّه أحدهم بإجابة، حتى أتته الإجابة من السبّورة:

ـ عن.. عن دنشواي الحَمَّام (قالها بتشديد الميم) والـ...

حين قال ذلك ضحك كلّ الطلبة الحاضرين وسخروا جميعًا منه، فتصبب عرقًا واحمرّ وجهه غضبًا وخجلاً وطأطأ رأسه، لكنّ أكثر ما أشعره بالخزي هي ضحكات إكرام التي لم تتوقّف كأنّها تقول: أنت أحطّ شأنًا منّي.

غضب المدرّس لم يتوقف عند تلك النقطة، بل ظلّ يضرب سيّد بالعصا حتى تورّمت يداه، فصار احمرار وجهه متناسقًا مع الحمرة بكفّه.

طيلة الحصص التالية لا يستمع إلى الدروس، وأذناه لا تُردّد ولا تُكرّر إلا صدى ضحكات إكرام الساخرة منه.

حتى في طريق عودته وهو يقود الدرّاجة لم يكن يرى الطريق، عيناه تفيض بدمع متحجّر يُشوّش الرؤيا، وأذناه تُردّد صدى ضحكاتها الساخرة، وقلبه يشعر بالهوان والذلّ، يسير بلا هويّة.

لذلك لم يرَ الرجل السائر على جنب الطريق، فمال عليه بدرّاجته فأسقطه في الماء القذر.. إنه زايد قاعود، الذي وقف بعد أن اتسخ جلبابه ووجهه بالطين غاضبًا متحفّزًا للقتال، لذلك لم يستمع لاعتذار سيّد، فصرخ في وجهه:

ـ ماذا فعلت يا ابن العاهرة؟

اجتمع المارّة، ولم يكن في مقدور سيّد أن يستمع للمزيد من الإهانات في ذلك اليوم، خصوصًا أن إكرام كانت ضمن الواقفين المراقبين للمشهد، لذا وجد نفسه يُقابل السباب بالسباب، بل يتمادى:

ـ العاهرة تلك هي جدّتكم بائعة الهوى!

كلماته أشعلت البركان بداخل زايد، فأمسك بتلابيب قميص الفتى وهمّ بصفعه لولا أن حال دون ذلك الواقفون، وحاول الجميع أن يُثنوه عن ذلك، بينما صوت سيّد مازال يعلو كأنّه يريد أن يُثبت لإكرام أنه رجل:

ـ و من تكون يا ابن قاعود؟ قوم أتوا إلينا بلا أصل، شرذمة بلا هويّة، انظر إلى ما حولك، كلّ تلك البيوت هي بيوت أبناء عمومتي، فلا يُصيبنّك الجنون وتُحاول لمسي!

المارّة حالوا بين المتصارعين وأمروا سيّد بالمضي والرحيل، فذهب متبخترًا بعد أن شعر بأنه فعل ما يفعله الرجال بعد أن أهان رجلاً له سطوته مثل زايد قاعود، لم يكتشف أنه بكلماته تلك خسر صديقه ربيع حفيد قاعود للأبد، لكنّ كلّ شيء لا يهمّ في سبيل أن يعود رجلاً في عيني إكرام.

بينما زايد مازال غاضبًا حتى وهو بين ذراعي ابن عمه عوض قاعود، الذي قام باقتياده إلى منزله وأحضر له كوبًا من الشاي بينما يقول:

ـ لا تدع طفلاً صغيرًا يُفقدك عقلك يا زايد.

نظر إليه زايد بعين تشحذ بالغضب والكراهية قائلاً:

ـ أهذا ما يُعلّمه آل البيه لأبنائهم؟

ـ هو في النهاية طفل، فلا تُضيّع كلّ ما حققناه هنا بسببه.

ـ وماذا حقّقنا ما بقي شرفنا مضغة في فم الأطفال!

ـ ماذا حقّقنا؟! انظر ماذا كان جدّنا وإيلام وصلنا تعرف ماذا حقّقنا، انظر للأراضي الخَضِرة التي نحوزها، الديار الفارهة، وانظر إلى ما وصل إليه آل

البيه تعرف أنهم الآن يحقدون علينا، ربما مازلنا شرذمة قليلين، لكنّ تلك الشرذمة هي من معها المال والسطوة، لقد تاجرنا في كلّ شيء هنا؛ المخدرات، السلاح، بل سطونا على كنوزهم وآثارهم وديارهم، بل أبعد من ذلك خطفنا أطفالهم، كلّهم يعرف ذلك عنّا ولا يستطيع حديثًا؛ ثم تسألني ماذا حقّقنا؟! يا زايد لا تُضيّع كلّ ذلك في غضبة من طفل.

أصدر زايد صوتًا وهو يرتشف رشفة من الشاي وقد هدأت حدّته بعض الشيء وهو يستمع إلى عوض، الذي تابع:

ـ لكن لا مانع من تأديبهم حتى لا يظنّوا أننا نصمت على كرامتنا وأنه من السهل النيل من أحدنا، كي يظلّ الخوف يُقيّدهم من الوصول إلينا.

انتبه زايد فترك كوب الشاي ونظر لابن عمه متسائلاً:

ـ وكيف يكون التأديب؟

ـ دعنا لا نتعجّل ولنفكّر ونتحيّن اللحظة حتى يبيت آل البيه ليلة مؤلمة، كلّ شيء مباح إلا القتل، فحين تقتل لا يبقى للآخر شيء يحزن من أجله أو يخاف عليه، فمن قتل مرة يقتل ألف مرة، لذا يُصبح تفكير الآخرين في اجتثاثه أمرًا لابدّ منه.

ردّد زايد كلمات ابن عمّه وهو يبتسم ابتسامة غامضة، كأنّه فهم ما يقول:

ـ كلّ شيء مباح إلا القتل.

* * *

ظلّ عليّ يُداعب كشّاف البيض ويفرز الصالح من الطالح، وهو مازال يطارده نفس السؤال وينتظر إجابة الحاج عبدالله له، لكن كعادة الحاج لا يعطيه إجابة، لماذا يكون البيض الذي يحمل جنينًا فاسدًا، والذي لا يحمل جنينًا صالحًا، لماذا يُحكم على الجنين بالفساد قبل مولده ويُعدم قبل أن يرى الحياة؟ كلّها أسئلة بلا إجابات، وهو يشارك في تلك المذبحة التي تقضي على الأجنّة.

هو يثق في معلّمه، وهذا يكفي حتى وإن لم يحمل إجابات تشفي الغليل. والحاج عبد الله يقف بجواره يُربّت على كتفيه ويُبصّره بما عليه أن يفعل. لم يكن يشعر بالراحة إلا في بيت الحاج عبد الله،

فدار البيه صارت كأنّها قاحلة بعد مرض والده وانعزال والدته، وعمر الذي صار لا يُعجبه شيء، حتى ابن عمّه سيّد اختلق مشاحنات مع عائلة قاعود، لم يعرف أن أحوال عائلته صارت مفكّكة وإن حاول الشجار فلن يعصمه أحد أو يُجيره أحد..

لكنّ سيّد مازال صغيرًا، أخذته الحميّة دون أن يرى المشهد مكتملاً، الحقائق ملتبسة والصورة ضبابية، وعليّ لا يُحبّ الغموض لذا يسأل دائمًا:

ـ أتعلم يا عمّاه؟ في كلّ ما يحيط بي هذه الأيام أتساءل ماذا سيحدث إن أنا مت، أبي لم يعد يثق في أحد سواي، أمي لا يُربّت على كتفها غيري،

وعمر بعيد يحيا في زمن مختلف.

فغر الحاج فاه مندهشًا يستجمع كلماته ثم قال:

ـ بارك الله فيك يا ولدي، لكن لماذا تتحدّث عن الموت وأنت مازلت صغيرًا؟

ـ لا أدري، لكنّ الموت حق.

ربّت الحاج على كتفه وابتسم ابتسامة خفيفة ثم قال:

ـ لم تذكرني فيمن سيفتقدونك يا ولدي، وأنا أكثر من سيُصاب لو حدث ذلك، أبوك وأخوك في عالمين بعيدين عنك وأمك آثرت الاكتئاب، بينما أنا لم يعد لي سواك، أنت بسمتي التي هجرت شفتي، أنت شبابي الذي غادرني، أرى فيك عبد الله الذي لم أكن عليه.

ترقرقت عيناه بالدمع والبسمة لا تُغادره وهو يتذكّر ابنه الآخر عامر، ويسأل نفسه هل قسى عليه حقًا؟ قاطعه عن التفكير صوت طرقات الباب، فراقب عليّ الذي قام ليفتحه.

كان أخوه بدوي حاملاً حقيبة ضخمة وبيده ابنه عمّار ذو السبعة أعوام، بعد أن رحّب بهما عليّ استأذن للذهاب حتى يترك الأخوين معًا.

تعانق الأخوان وتبادلا العتاب، قبل أن يظهر الاهتمام على وجه بدوي:

ـ هذا آخر شهر لي في تلك الشركة، قررت أن أستقيل منها والعودة إلى قفط والبقاء فيها للأبد.

ظهرت الدهشة على وجه الحاج عبد الله قائلاً:

ـ لقد طلبت ذلك منك مرارًا، لكنّي لم أتوقع أن تأخذ ذلك القرار المفاجئ.

ـ لقد اكتشفت كارثة.

قصّ عليه بدوي القصص وما حدث معه في تلك الرحلة التي قام بها من الغردقة للأقصر في العيد، ثم تابع:

ـ لي صديق يعمل مراسلاً لجريدة « السرّ الساري» المُعارضة، كنت قد خدمته أثناء وجوده في فندقنا ووجدت له آلة تصوير سرقها أحدهم، فكان مدينًا لي بخدمة، أخبرته بكل ماحدث فطلب مني مهلة ليتقصى الخبر، منذ بضعة أيام أخبرني أن هناك عصابة ضخمة للاتّجار في الأعضاء، يقومون باختطاف الأطفال من المدن النائيّة، أطفال هم أبناء أناس نكرة، وتلك العصابة يُديرها طبيب من الأقصر يدعى حافظ البنداري، وتدعمه الشرطة التي لا تُلاحق الخاطفين وتُقدّم لهم العون، والكارثة الكبرى أن الشركة السياحية التي أعمل بها هي شريك أساسي ضليع في تلك الجريمة، يُسهّلون نقل الأطفال دون تفتيش على أتوبيساتهم السياحية، وبعد ذلك يسهل عليهم في أفواجهم أن تطير تلك الأعضاء للخارج، أطفالنا يُقطّعون إربًا يا عبد الله، خفت على عمّار وأخته فقررت ألا أعمل في تلك الشركة القاتلة حتى وإن متنا جوعًا، لذا اقتنصت فرصة أجازة رأس السنة الهجرية وحضرت ببعض الحقائب، وحين ينتهي الشهر سنأتي جميعًا.

استشاط عبد الله غضبًا حتى احمرّت عيناه:

ـ إلى هذا الحدّ وصلوا؟ حتى المستقبل لا يتركونه؟

ـ إنها الحياة يا أخي، وهذا دأب الأسماك الضخمة.

راقب بدوي أخاه وهو يضرب كفًّا بكفّ ويستنكر ما يحدث، قبل أن يُوجّه ناظريه تجاه عمّار الذي كان يجمع بعض القشّ الأصفر كأنّه يصنع عشًا فعادت إليه ابتسامته، ناداه، حتى إن حضر وضعه على ساقه وقبّله، عندها ابتسم بدوي وقال:

ـ لقد أحضرته معي لأتركه معك حتى نأتي جميعًا، هو يريد أن يذهب إلى مولد جدّنا الرحماني، كنت قد حدّثته عن المرماح وهو يريد أن يراه.

ـ المولد بعد أسبوعين، لا أعرف إن كنت سأذهب أم لا، لكن اتركه معي، فأنا في أشدّ الحاجة إليه.

أمسك الحاج بكفّ عمّار الصغير وفتح نافذة الحجرة، وسمعا أصوات الناس العالية، راقبا الراكبين فوق حمرهم واستمعا لأصوات بائعي الخضار وهم ينادون، فقال الحاج للصغير:

ـ لو تودّ الذهاب للمولد من أجل المرماح، فانظر إلى كلّ هؤلاء.. سترى مرماحًا أعظم، أما إن كنت تريد أن ترى الخلوة فسنذهب.

نظر الطفل ببلاهة لعمّه وردّد بتساؤل دون فهم:

ـ خلوة؟

ابتسم الحاج عبدالله ولثم جبين الصبي واحتضنه بقوة، وهو يقول لنفسه: كيف سمح هؤلاء لأنفسهم تقطيع من هم مثلك!

* * *

في الأيام التالية بدأت رحلة الحفر والبحث عن شيء في جوف الأرض ليس بمياه جوفية أو عظام نخرة، يبحثون عن الحياة التي يمنحها الموت.

ضربات المعول موجعة وصداها مرعب، في كلّ ضربة يضربها عامر ينتظر أن يرى معها الذهب البرّاق، إلا أن هذا لم يحدث.. فقط ينتظر، الهوّة تتّسع في باطن البيت والضربات لا تتوقف، وعبّاس يُصرّ أن الطريق للذهب هو الصبر، عليه أن يُكمل دون ملل وألا يُشتّت جهوده بين حفرتين.

الإجهاد يُصيب عامر رغم قوّته البدنية، لم يعد يحتمل فجلس قليلاً ليرتاح، وهو يقول بينما صدره يتهدج بأنفاس متوالية:

ـ عمّاه، أشعر بالإنهاك، يكفي ذلك اليوم على أن نكمل غدًا.

ـ حسنًا يا ولدي.

جرّ عامر قدميه إلى غرفته وألقى نفسه على السرير متعبًا، ولكنّه رأى شيئًا عجيبًا.

إسعاد تُصدر آهات منتشية وكأنّها بين أحضان رجل، إلا أنه لا يجد أحدًا

هناك، تُتمتم بلسان يحمل الكثير من الإغراء: أحبّك..

صدرها يعلو ويهبط كأنّها تقوم بمجهود كبير، حدّث نفسه ربما كانت تحلم، همّ أن يوقظها، إلا أنه لم يستطع أن يُحرّك يده أو لسانه، شعر بعجز تام كأنّه مقيد تمامًا، يُراقب بلا حول أو قوة منه مضاجعة زوجته للخواء، حتى توقّفت عن تأوّهاتها وصمتت..

حينها فقط استطاع أن يتحرّك، هزّ زوجته إلا أنها لم تستجب كأنها نائمة في جبّ عميق، حرّك جيدها ليرى آثار أصابع عليه.

انطلق مفزعًا لقاعة البيت، وجد عبّاس مازال متيقظًا يُكركر بأرجيلته. حين شعر بعامر قال له دون أن ينظر إليه:

ـ لماذا عدت يا عامر؟ ألم تقل إنك منهك؟

ـ حدث شيء عجيب يا عمّاه.

ثم قصّ عليه القَصَص وما رآه، وطلب منه المشورة.

اعتدل عبّاس في جلسته وسحب نفسًا عميقًا جدًا من أرجيلته، قبل أن يُطلقه في الهواء:

ـ في البداية قلت لي إنك مستعد أن تفعل أي شيء في سبيل المال، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ حسنًا، سأخبرك بكلّ شيء، كان هناك رجل فقير يعمل في هيئة الآثار ببلد فقيرة تُدعى أخميم، يُساعد إحدى البعثات في الكشف عن أحد المعابد المفقودة، البحث شاق، التعب حلّ بالجميع ولا طريق للمعبد، حين شعر بالإرهاق نام تحت أقدام تمثال ميريت آمون، وما إن أغفل عينيه حتى شعر أن هناك من يناديه، رآه أول مرّة في هيئة رجل يُخبره إن أراد أن ينتهي من كلّ ذلك فعليه اتّباعه كي يصل لمبتغاه، المال الوفير، الأراضي المتناثرة، المجد، كلّ ذلك سيكون ملك يمينه فقط إن اتّبعه، فهل تتبع شيطانًا كي تبلغ أحلامك؟

أطرق عامر رأسه بلا إجابة، بينما أكمل عبّاس:

ـ كيف يحيا موظف صغير في تلك البلد ومعه زوجة وابنة، كيف يتحمّل العناء والألم؟ لذلك لم أُفكّر طويلاً، ووافقت، كان يدّلني على أماكن الكنوز ويقودني إليها، كنا نقتل في سبيل ذلك أحيانًا ونسرق أحيانًا، الوحيد الذي أمرني باقتسام ما نجده في داره هو والد صديقك حسين الدندراوي، كان طعمًا ليسوقك إليه.. أُخبرك بكلّ ذلك لأنني أعلم أنه ليس لديك أيّ فرصة للتراجع.

ـ طعمًا لي؟ لماذا أنا؟

ـ لا أدري، لكنّه أخبرني أنك ستأتي، وكلّ ما كنت أفعله كان بناءً على أوامره، لا تخف يا ولدي لن يؤذيك ما دمتَ له تابعًا.

اعتدل عامر وابتسم ساخرًا:

ـ أخاف؟! قديمًا كانت هناك شجرة بجوار المعهد الأزهري يقال إنها تسكنها جنيّة، بينما كنت عائدًا للبيت متأخّرًا لم أنتبه إلى أنني أسير بجوار الشجرة، حتى انتبهت إليها متأخّرًا فركضت برعب كأنما تُطاردني الشياطين، فرآني الشيخ رمضان إمام المسجد وأوقفني قائلاً ما يُرعبك؟ قلت: الشجرة، قال: يا بني لا تخف مما تحرقه آية ولكن اخشَ ممن يؤول ذات الآية لما يوافق هواه.

ثم صمت عامر وهو يراقب عبّاس الذي كان يبدو عليه الخزي، قبل يسأله قائلاً:

ـ وإسعاد؟ كانت تعرف كلّ ذلك؟

ـ كلا، لكنّها عرفت بعد زواجك منها، كانت تشعر بالضيق كلّما لفحت أنفاسك وجهها، كلّما لامستها أناملك، لذا لم تُقاوم طويلاً طلبه لها بمضاجعتها، ووافقت.

قال عامر باستنكار:

ـ تُضاجعه؟!

ـ نعم.

احمرّ وجه عامر غضبًا واشتعل بركان دامٍ بداخله، قبل أن يقول:

ـ بعد أن ينتهي كلّ ذلك ونجد الكنز لا أريد أن أراكما ثانية.

ـ وابنك؟

ـ ماذا؟

ـ إسعاد حبلى.

ضاقت عينا عامر والغضب يتملّكه:

ـ ممّن؟

ـ منك بالتأكيد.

أُسقط في قلب عامر الغضب حتى احمرّت عيناه كثور هائج وهو يُفكّر، هو لم يتزوجها سوى من شهر واحد فقط، ما يُدريه أنه ابنه؟ فأسرة تعبد الشيطان مثل هؤلاء بالتأكيد يفعلون الفحشاء، لذا قال:

ـ سأُهيّئ لنفسي مكانًا للنوم بعيدًا عن ابنتك، ولا أريد منها ابنًا.. إن لم تستطع أن تُجهضه فلترحلوا به بعيدًا عنّي، فهو ابن خطيئة.

* * *

أوى عمر إلى ركن على أطراف غرفة المكتب بعد أن زحّزح مقعده فيه وتأكّد أن يوسف خرج لغرض ما ولن يعود قريبًا، يوسف زميل دراسته منذ كانا طفلين، ينتقلان معًا من فصل إلى فصل ومن مدرسة لأخرى، لم يفترقا إلا عندما كان الأستاذ أميل مدرس العلوم يصطحب يوسف إلى فناء المدرسة

ليشرح له الدين المسيحي، حتى في الجامعة التحقا معًا بكليّة الحقوق بأسيوط، لكن حين اعتُقل عمر ذهب كلّ ذلك أدراج الرياح، واكتشف عمر أن هناك فجوة عميقة بينه وبين زميله لا يمكن أن تملأها الذكريات.

هو اعتُقل وأهين ويوسف يرتع في رغد الحرية ينعم بطيب الحياة التي يكفلها أهل السلطة، هذا ما كان يراه، ولهذا مقت الحكّام ومن يرعونهم، وجعله يرتمي في أحضان الطرف الآخر من الخيط.

أخرج هاتفه النقّال الذي اشتراه منذ أيام من قنا بثمن يكافئ مرتب شهر كامل، ولم يبالِ لأنه اشتراه لسبب قوي وهو أن يُخابر أستاذه ومعلّمه وشيخه سليمان.

دعس على الأرقام وما إن سمع صوت الجرس في الطرف الآخر حتى أغلق الهاتف وانتظر، حتى تعالى الرنين منه، فوضعه على أذنه وتلقّى المحادثة:

ـ السلام عليكم، كيف حالك يا عمر؟

ـ وعليكم السلام أستاذي الفاضل، الحمد لله أنا بخير لكنني أفتقد صحبتك، كلّ عام وفضيلتكم إلى الله أقرب بمناسبة السنة الهجرية الجديدة، وأتمنى أن يكون عام نصر المسلمين.

ـ وأنت بخير يا بني، نعم أشم رائحة نصرة الإسلام تملأ الأجواء، كلّ ما هنا يدعوني للتفاؤل وأن كلّ الظلم سينتهي.

ـ بالتأكيد يا سيدي فالباطل زهوق.

ـ نعم بالتأكيد، أخبرني كيف حال قفط وأهلها؟

ـ قفط لا تتغير أبدًا، شوارع ضيّقة وعرة، وديار تسبح فوق مياه المجارير، ناس أعماها الضلال، قبوريون بعيدون عن الصراط المستقيم، وفئة قليلة جدًا هم من يخافون الله، كما أن هناك من ادّعى أنه المهدي المنتظر، ذلك الرجل مهدي السعدي الذي ملأ الدنيا ضجيجًا أن فضيلتكم سلبته حقّه في الإعارة، وحاشا لله أن تفعل ذلك.

ـ المهدي المنتظر؟ (قالها وضحك ضحكة قصيرة قبل أن يستطرد) أنا لم أسلبه حقّه، إن إعارتي للسعودية كانت بأمر من الجهات الأمنية لم أسعَ إليه بل أُجبرت عليه، لكن دعنا نكن واقعيين؛ لو أن مهدي حاز الإعارة ماذا كان سيفعل؟ كان سيُمارس عمله في المدرسة صباحًا وحين يعود سيبحث عن مصدر آخر للرزق، سواء كان عن طريق الدروس الخصوصية أو غيرها، كأنه خُلق ليجمع المال، كان سيعيش لنفسه فقط، أما أنا فهنا قد تتلمذت على يد شيوخ أجلاء أنهل منهم العلم نهلاً حتى إن عدت نفعتكم به، لو أنه قد آل لي أمر سلبه الإعارة لأظفر بها لفعلت، ليس من أجلي بل من أجلكم أيضًا ومن أجل أن يعمّ الخير والعلم، لكنّ الله عصمني عن ذلك وسخّر لي عدوي ليمنحني تلك الفرصة.

ـ بالتأكيد هي علامة يا أستاذي.

ـ نعم علامة نهاية المبطلين، ففرعون سخّره الله ليُخرج موسى من اليمّ،

وكان هذا إيذانًا بقرب نهايته.

ابتسم عمر وشعر براحة عارمة تنتابه، فسأل أستاذه أن يوصيه فأتاه الردّ من الطرف الآخر:

ـ عليك بتقوى الله، وألا تحرم أحدًا من علم تعلّمته، وعليك بالغوص بين الناس لتدلّهم إلى الله كما علّمتك..

شكر عمر أستاذه ووعده أن يضع وصيّته في اعتباراته، وأغلق هاتفه النقّال وهو يشعر بنسيم بارد لطيف يُزلزله من الداخل وأن قلبه يرتجف بالحبور والنور.

* * *

## السبت ١٠ من المحرم ١٤٢٣/٢٤ من مارس ٢٠٠٢

الواحدة صباحًا

ضربات المعول تصرخ في صمت الليل وهي تدكّ رؤوس أحجار الأرض لينفجر الماء فتسحبه الطلمبة بعيدًا، معول صنعته يد عامر، من ضلوعه صاغته، يبطش به غضبه فتئن الأرض مزلزلة.

يبثّ في ضرباته كلّ حنقه وهو يتذكّر ما فعلته به إسعاد، حتى الشيطان لا يستطيع أن ينال شيئًا من أنثى إلا ما تعطيه إياه، وهي منحته كلّ شيء، الداعرة العاهرة! كيف أحبّها ووثق فيها يومًا، هل استسلمت بسهولة لأبيها الديوث الذي يُقدّم فلذة كبده قربانًا لسيّده؟

ما الذي يجبره على إتمام تلك الصفقة؟ لماذا لا ينسحب ويخرج من تلك الحياة القميئة؟ عبّاس قال له إنك لن تستطيع المغادرة، نعم هو كذلك لم يتعود على العودة بعد أن حزم أمره وتعوّد على المضي في الطريق الذي يختاره حتى يتمّه.

لكنّ ذلك غباء، هو يخسر نفسه من أجل ماذا؟ الثراء؟ هل الثراء سيمنحه شرفًا جديدًا لم يُدنّس؟ كلا.

لكنّه سيمنحه حياة جديدة لن يكون فيها عبّاس أو من شابهه، هو سيختار من يدخلها ويُقرّر من يخرج منها.

الأحجار تئن أسفل ضربات ضلوعه، وهو يزفر حميمها وتدور معها الحكايا والذكريات، ها هو يركض لاهثًا خائفًا من شجرة الجنيّة، يصطحبه الشيخ رمضان لأبيه، لا يكاد يأخذ أنفاسه، يربّت الأب على كتفه قائلاً:

لا تخف يا بني، جدّنا الأكبر الرجل الصالح أخذ عهدًا على الجنّ ألا يمسّوا ذريّته.

يبتسم ساخرًا وهو يُزيل العرق عن عينيه، نعم يا أبتِ، لن يمسّونا بل يسلبون منّا كلّ شيء، كلّ شيء يا أبتِ.. يضرب بمعوله ويضرب، تنفجر دماء الأحجار فتغرق الخائض فيها وهو لا يتوقّف عن ضرباته المتوالية الغاضبة، ولا يهتمّ لأمر الماء الذي أغرق جلبابه.

صوت الضربات يتغيّر ويُبرز فراغًا بين الأحجار المفكّكة، يقترب على مهل من حلمه، ومع ذلك ضرباته تشتدّ ولا يتوقّف أو يرحم الأرض، الفجوة بدأت تتضح كاملة، قفز داخلها حتى دون أن يستشير عبّاس الواقف بجواره.

المصباح لا يُظهر الكثير، رموز فرعونية تُزيّن جدران غرفة ضيّقة مغلقة وصندوق ذهبي ممدد على الأرض، تحسّس الجدران بيده وطرق عليها لعلّه يجد تجويفًا بها، لكنّه لم يجد فقرر أن يدنو نحو الصندوق ويفتحه، فوجد به بردية مطويّة، انتزعها وخرج من الحفرة.

استقبله عبّاس بالبِشر والحبور بينما جلس هو على فوّهة الحفرة يلتقط

أنفاسه، قبل أن يعطي عبّاس البردية التي بدأ يقرأ ما فيها بصوت عالٍ:

«أيها القادم من عالم لا تعرفه إلى عالم لن يعرفك، إن كنت آتٍ لترتوي حكمة فاعلم أنه لا راحة لمن غادر بطن أمه، وإن كنت آتٍ لتغتسل في وحل السرقة فستطاردك لعنة لا تقوى على التصدّي لها، ستنهمر عليك شلالات المعرفة حتى تغرق في بحر لجيّ من الهوس أو تبلغ الشاطئ الآخر».

ارتعد جسد عبّاس حين وصل للعنة، قال لنفسه حديثهم عن القادم، موجّه لمن اقتحم غرفتهم فقط، أما هو فلا.

لذا قرّر أن يصبر تلك الليلة لا يقوم بأي عمل حتى يستشير شيطانه ويتأكد أن عامر لم تُصبه لعنة، لذا قال له

ـ اليوم أنت بذلت جهدًا كبيرًا، فلترتح ونكمل غدًا.

ـ لكنّ الغرفة مغلقة تمامًا.

ـ غدًا نبحث عن تجويف آخر خلف الجدران.

ـ حسنًا.

حمل عامر معوله والبرديّة التي أصرّ أن تبقى معه، عبّاس مريب باع ابنته من أجل المال، ربما كانت البرديّة خريطة أو تعليمات للوصول للكنز هو يخفيها عنه، بخطوات حثيثة مثقلة بإرهاق اليوم العاصف سار نحو غرفته المنعزلة عن غرفة إسعاد، قذف معوله بجوار الأريكة التي ألقى جسده عليها ليهدأ الجسد وتبدأ الأفكار، لم يُلقِ بالاً لما كُتب في البردية التي قرأها والد زوجته إلا لجملة واحدة «لا راحة لمن غادر بطن أمه»، تردّد صداها في عقله، تدق أجراسًا رنّانة، تمتزج بصوت قطرات تسقط من الطلمبة وكركرة شيشة عبّاس، الأصوات تتعانق لتصنع سيمفونية من الأفكار، آهات إسعاد المنتشية بين ذراعي الشيطان.

الأصوات تتداخل في العقل فتدفعه بعيدًا عبر الأزمان، فيجتمع الماضي والحاضر، والهواجس تصنع فجوة في الواقع يسقط فيها..

كيف تصل به إلى المآل قبل أن تُجيب السؤال.. طاااااااك دووووم (صوت ضربات المعول).. (يفتح أزرار جلبابه ويُخرج جذعه من باب القطار ويصيح).. هوااااء.. عبد رقٍّ ما رقَّ يوما لعتقٍ.. أطلق حواسك هي تفهم وهي تشعر.. أربعون ليلة ليس معه إلا كسرة خبز وبعض الماء.. هوااااااااااااااء.. خلوة؟ نعم هي كالقبر.. حرقة القلوب أشدّ قسوة وأعظم عذابًا.. (آهات زوجته يعتصرها الشيطان).. أحبّك.. الدم نجس.. هواااااااااااااء..

ارتفعت وتيرة الأصوات والمشاهد المتداخلة ما بين الماضي والحاضر، حتى تصبّب جبينه عرقًا أغرق جلبابه، ورأسه يتأرجح يمنة ويسرة وجذعه يتلوّى كالثعبان، وهو فاغر فاه مقطّب الجبين يُريد أن يصرخ لكنّ الأصوات أقوى.

طاااااااااااك دوووووووووووم هواااااااااااااااااء

طااااااااااااااك دووووووووووم هواااااااااااااااااااااااء

طاااااااااااك دووووووم هواااااااااء

ثم صمت كلّ شيء فجأة، التقط أنفاسه وهدأ وهو مندهش، إلا أنه استمع لصوت قرآن الفجر ينبعث من مذياع تنقله مكبّرات الصوت من أحد المساجد البعيدة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

هبّ من فوره، وبآلية كأنّه تحت تأثير مخدّر حمل معوله وانطلق نحو غرفة زوجته الملقاة جثتها على السرير في نوم عميق جراء مجهود عنيف قامت به بين ذراعي الشيطان، وبكلّ قوّته فعل ما يفعله بالحجارة صوب معوله نحو بطنها حيث يرقد الجنين في وضعه المقلوب، وانفجرت الدماء من الصخرة التي فتحت عينيها من هول الضربة ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة، قبل أن يسكن كلّ شيء.

**﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**

حمل معوله الملوّث بالدماء النجسة وجرّ قدميه خارج الغرفة نحو الأريكة في صدر المنزل، حيث رقد عبّاس يُصدر شخيرًا عاليًا كأنّه آتون مشتعل، وبكلّ قوّته انطلق المعول نحو هدفه.. رأس عبّاس.

تعالى صوت المبتهل من مذياع المسجد مغرّدًا:

رباه

ها أنا ذا خلصت من الهوى واستقبل القلب الخليّ هواكَ

وتركت أُنسي بالحياة ولهوها، ولقيت كلّ الأنس في نجواكَ

ونسيت حبّي واعتزلت أحبّتي، ونسيت نفسي خوف أن أنساكَ

ذقت الهوى مرًّا ولم أذق الهوى، ولم أذق الهوى حلوًا قبل أن أهواكَ

بينما عامر لا يستمع لشيء، هو فقط يهرب من البيت، يركض بكل قوّته حتى أن نسمات الفجر لا تملأ صدره، إنما يملؤه «الهواااااااء».

يركض بعيدًا عن الديار نحو الخلاء، حيث شجرة النبق العتيقة التي توقّفت عن الإثمار وهجرها الطير والبشر، أسفلها رفع معوله الذي يقطر بالدماء النجسة ويضرب الحجر أسفل الشجرة.

«الصلاة خير من النوم»

الضربات تتوالى ولا تقف، كأنّ إجهاد الليل كله لم ينل منه. يضرب ويضرب،

يُزيل العرق بطرف جلبابه الذي كاد أن يصير رماديًّا، الظلام يحيق به إلا من بعض المصابيح المضيئة من بعيد، هو لا يخشى شيئًا، فقط يحفر ويحفر.

صوت الإمام وهو يُصلّي تنقله مكبّرات الصوت:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

هو لا يسمع إلا صوت المعول.

طاااااااك دووووووووم

ومع أول أضواء الصباح حيث تغتسل الطيور في النور كان هو قد صنع قبره وألقى بنفسه في بطن أمه ليرتاح، وأخيرًا حنّ عليه القدر فسقط مغشيًا عليه داخل خلوته.

* * *

أيقظ الحاج عبد الله ابن أخيه عمّار بابتسامة حانية وهو يهزّه برفق قائلاً:

ـ هيّا يا عمّار، عليّ ينتظرنا ولا ينبغي أن نتأخر.

تثاءب الصغير وهو ينفض عن عينيه النوم ثمّ يفركها ويُبادل ابتسامة عمّه بابتسامة تحمل بعض البراءة. ويهبّ من نومه ليستعدّ لمغامرته.

فعمّه قد وعده اليوم أن يصطحبه معه في جولته لجمع البيض.

رفع الحاج إحدى قدميه على ظهر الحمار ثم قذف بجسده في رشاقة يحسده عليها الغلمان، حتى إذا استوى فوق الحمار مدّ يديه ليُمسك بابن أخيه الذي رفعه إليه عليّ، حتى إن وضعه الحاج أمامه ذهب عليّ نحو دراجته ليمتطيها، ما إن رأى الحاج الدراجة حتى ابتسم قائلاً:

ـ اشترِ حمارًا يا عليّ، هو يعرف كيف يتعامل مع أرض قفط الوعرة.

بادله عليّ بضحكة قائلاً:

ـ سنمهّدها يا عمّاه.. فهو خطأكم أنتم.

ـ نحن؟

ـ نعم، حميركم التي تكيّفت مع الوعورة جعلتكم لا تبحثون عن تمهيدها.

ضحك الحاج عبد الله ضحكة مجلجلة حتى اهتزّ جسده فوق ظهر الحمار، وهو يحتضن ابن أخيه قائلاً:

ـ أخيرًا عرفت لماذا أكره كلّ ما هو دائري، لأنني لا أستطيع التعايش معه.

توقّف عليّ فجأة عن الضحك وهو يقول باهتمام:

ـ عمّاه، أريد أن أخبرك عن شيء.

ـ ماذا يا بني؟

ـ لقد رأيت حلمًا غريبًا، رأيت رجلاً في الأربعينات من عمره له لحية خفيفة

ووجه نوراني، قال لي: صم اليوم ولا تُفطر، واحمل تمرًا حتى يُفطر به الحاج عبد الله.

ـ أنا صائم يا ولدي.

ـ أجل، أعلم ذلك، لكنني حين استيقظت على صوت قرآن الفجر ينبعث من المسجد شعرت كأنّه أمر إلهي، فنويت الصيام رغم أن رائحة القرفة الصادرة من العاشوراء التي صنعتها أمي كانت تراودني عن نفسي.. وحملت لك بعض التمر لإفطارك.

ضحك الحاج عبدالله قائلاً:

ـ لعلّه خيرًا.

ـ عمّاه، انظر إلى الجسر هناك.. أشعر أنني لن أعبره، كأنّ ذئبًا يختبئ خلف أعواد القصب القريبة.. عمّاه أخشى على أبي.

بدا القلق والتوتّر على وجه عبدالله، وحاول أن يُهدّئ من روع الفتى:

ـ إنها مجرد هواجس، كلّ يوم نمر من ذلك الجسر ولم نرَ ذئبًا.

ـ أنفاسه الحارة تلفح وجهي وهو ينظر الآن نحوي، أراه وأنا لا أنظر إليه.. أمي بجوار الفرن تضع الدقيق في الإناء الفخّاري وتستعدّ للعجن، بينما أبي ينظر إلى السقف يراقب برعب برصًا يهمّ بإخراج لسانه ليأكل ذبابة، وعمر نائم..

ـ يا بني هوّن عليك وراقب الطريق، لا أخشى عليك من الذئب، أخشى عليك من المطبات.

ـ أرى كلّ ذلك بعيني يا عماه.. كيف لم تشعر بعامر؟ كيف لم تسمع ضربات معوله تشق السكون؟ من أين لك تلك القسوة!

ألجمت كلمات عليّ عن عامر لسان الحاج، فاستطرد الفتى:

ـ في أسيوط تتبدّل الأحوال.. حين يأتي الرجل اترك له الصبي، هو يعرف الطريق جيّدًا ويخبر مسالكه، لا تخشَ على عمّار، فقط أعط.....

قاطعه عن إتمام جملته مطب ظهر فجأة لتحيد الدرّاجة عن مسارها، بينما يدبّ فجأة صوت الرصاصة وهي تشق الهواء نحو الفتى.

انفجرت الدماء من الثقب الذي صنعته الرصاصة في ظهر الفتي وهي تشق طريقها نحو قلبه، فقذفت جسده من على الدرّاجة ليسقط بجوار الجسر، المفاجأة قذفت بالحاج من فوق حماره ودفعته نحو عليّ يضعه بين ذراعيه، بينما عليّ يبتسم في ألم والدماء لا تتوقف، لذا تحدّث في وهن وهو يضع يده في جيبه ليُخرج التمر:

ـ التمر.. لكنه امتزج بدمي، والدم نجس.

الدموع تنهمر من عينيّ الحاج بلا توقف، وهو يضمّ الفتى إلى صدره بقوة:

ـ لا تقل ذلك، دمك طاهر، دمك نور.

ابتسم عليّ ابتسامة أوسع قبل أن يقول:
ـ أشمّ رائحة القرفة، عاشوراء جاهزة تنتظرني هناك وراء الجسر.
ـ توقّف يا بني، لا تُنهك نفسك بالحديث.
ـ هناك خلف الجسر.. انظر يا عمّاه، يبدو أنها شهيّة، إنها لي.. الحمد لله رب العالمين.
قالها مبتسمًا ثم صمت، لكن ظلّ محياه يحمل ابتسامته طويلاً، ليترك الحاج في ذهول لا يفهم شيئًا، بينما هناك سيّارة تعبر الجسر لتقف بجواره مكتوب على لوحتها أجرة أسيوط، يهبط منها الشيخ أبو المكارم.
لم تبدُ على الحاج الدهشة وهو يرى الرجل، بل بدا عليه التساؤل الممزوج بالأسى:
ـ لماذا هو؟
ـ لم تفهم بعد؟
ـ لماذا هو؟ لماذا الرقيق الحنون الغضّ؟ ألأنه كان يسأل كثيرًا؟ ألأننا لم نفهمه؟
ـ بل لأنها إرادته ومشيئته سبحانه، لا تدع الخطب يحملك بعيدًا فتضلّ.
حاول أن يوقف نزيف الدموع وهو يبتلع مرارتها بفمه ولسانه يقول:
ـ أستغفر الله.
ربّت الشيخ أبو المكارم على كتف الحاج قائلاً:
ـ أتيت لأُطمئنك على عامر، هو بخير وعرف الطريق.
ـ ألهذا فقط أتيت؟ وما يُجدي ذلك؟
ـ كلا، هناك سبب آخر، أتيت لتعطيني الصبي، ألم يوصك عليّ بذلك؟
رفع الحاج عبد الله حاجبيه والأسى يبتلع ملامحه قائلاً:
ـ نعم قال لي، عامر ثم عليّ فعمّار، هكذا الكل يتركني؟
ـ كي تجتمعوا جميعًا.
ـ وماذا أقول لأبيه؟
ـ قل له سيعود.
رفع الشيخ أبو المكارم عمّار من فوق الحمار، ثمّ عاد للحاج وربّت على كتفه قائلاً:
ـ أيها الحاج الكريم، الحياة دائرة كلّ نقطة فيها هي بداية ونهاية، لا تمقت الدوائر يا صديقي ولكن امقت الدنيا فهي سجن، فرّ منها إليه، وداعًا يا صاحبي، ربما لن أراك مجدّدًا لكن معي بعض منك.
طيلة الوقت كان الحاج ينظر بعينين زائغتين للشيخ، ولم ينبس ببنت شفة وهو يراقبه يأخذ الصبي إلى السيّارة التي مضت بعيدًا إلى ما وراء الجسر

في طريقها إلى أسيوط.

* * *

انتفض «الصغير قاعود»، أكبر آل قاعود سنًا وأكثرهم حكمة، واقفًا وهو غاضب في ديوان عائلته، حيث اجتمع كلّ أفرادها؛ حين رأى زايد قاعود قادمًا من بعيد.

قام بدقّ الأرض بقوة بعصاه الغليظة وهو يصرخ في وجه زايد:

ـ ماذا فعلت يا آكل أمك؟!

أطرق زايد برأسه دون أن يرفع طرفه إلى عيني كبيره، قائلاً:

ـ لم أقصد قتله، اتفقت مع عوض أنه يتوجب تأديب آل البيه على ما فعله فتاهم معي، اخترت عليّ كي أؤدبهم به، فمن هو مثله؟ أبوه بطل وجدّه نائب، لذا كان هدفي.. راقبته طويلاً وخبرت مساره جيّدًا، اختبأت بين زراعات القصب قرب الجسر وانتظرت حتى رأيته من بعيد قادمًا مع الحاج عبدالله، وصوّبت بدقّة نحو ذراعه، وأنت تعلم جيّدًا أنني رامٍ لا يشق له غبار، واتخذت قراري، وبينما تعتصر سبابتي الزناد حدث ما لم يكن بالحسبان؛ تأرجحت دراجته بفعل مطب واهتزّ جسده، لم أستطع أن أوقف الرصاصة التي أصابت قلبه بدلاً من ذراعه، صدّقني يا كبيرنا لم أكن أريد قتله، وسلّ عوض.

ـ أنت تعلم يا زايد، وكلّكم تعلمون، بل كلّنا نؤمن أنه ما دمنا اخترنا طريق الخطر أن النية لا تعني شيئًا، المحصّلة هناك من قُتل، وآل البيه لن يتسامحوا في دمائه.. نحن وإن كنا أكثر تسليحًا ونحمل في صدورنا قلوبًا لا تخشى شيئًا... لكنّهم كُثُر، وهذه بلادهم، نحن الدخلاء، فلنحمل حاجياتنا ونخرج بينما هم منشغولون في ذهولهم يهتمّون بدفن فقيدهم قبل أن يفيقوا ويطلبوا الثأر منّا، في المغرب بينما هم يصلّون الجنازة، نرحل نحن.

هنا هبّ عوض واقفًا وهو ينظر للصغير، وهتف في غضب:

ـ أنترك كلّ ذلك ونبدأ من الصفر مرة أخرى! انظر إلى الأراضي الخضراء من حولك، إنها صارت لنا، هذه بلدنا كما هي بلدهم!

ـ نعم يا ولدي هي كذلك، وسنعود، أقسم إننا سنعود، لكن يجب أن نتحلّى بالحكمة، والزمن كفيل بمداواة الجروح، نحن لن نبدأ من الصفر، أموالنا في جيوبنا، سلاحنا على أكتافنا، لن يضيرنا أن نغيّر المدينة والدار، ما الديار إلا بشر، ونحن من نصنع البشر ونصوغهم إلى ما نريد.

ـ لكن...

ـ أتقبل يا عوض أن نقدّم لهم زايد في كفنه أو نتركهم يقتلونه، وأنت اللبيب؟

حدّج عوض زايد بنظرة حادّة قبل أن يتنفس في عمق قائلاً:

ـ كلا بالطبع، فلو فعلوا ذلك مع أحدنا سنسقط واحدًا تلو الآخر كوريقات

شجرة تنتزعها العاصفة، حسنًا يا كبيرنا الرأي رأيك، إلى أين الرحيل؟

ـ البحر الأحمر إلى القصير، سفاجا وغيرها.. لن نقيم في بلد واحد، سنوزّع أنفسنا، حتى إن وجد أحدنا أرضًا صالحة للمقام تكاثرنا إليها وتجمعنا فيها لنبدأ دورتنا الجديدة.

انتهى اجتماع آل قاعود بأن حزم الجميع أمرهم بالرحيل عن قفط، كلّ فرد منهم ذهب إلى داره ليحزم حقائبه ويجمع ثرواته ويفرّ في وقت الجنازة.. ينظرون إلى أراضيهم الخصبة وتربتهم الرطبة، يهتفون بصمت: سنعود.

* * *

الأسى والحزن يُخيّم على سماء قفط، والخطاب الحماسي لا يتوقف في نجوى كلّ اثنين، الدم بالدم.

عمر لا يفهم ما حدث، عليّ أخوه قُتل، نعم هو بالداخل مسجى على سريره لآخر مرة، القنبرة فوق المصباح تهدل بأسى كأنّها ترثيه وهو لا يفهم.. النسوة بجواره متشحات بالسواد يصرخن، فاطمة أمه تكشف رأسها وتضع عليه التراب متلطمة، وهو لا يفهم..

عمه عبد الحميد يُحدّج الجميع بنظرات نارية، دماء ابن أخيه ستنفجر بركانًا في وجه من قتله، هو يقسم على ذلك، بينما البطل عبد الدايم ينظر فزعًا في وجوه الواقفين يسأل عن عليّ.. أين عليّ، أين عليّ، ولا أحد يجيب، أما سيّد فقد اسودّ وجهه وهو يرى ابن عمه يفتديه، هو من كان يجب أن يُقتل، سارع إلى ركن الغرفة وجلس واضعًا رأسه بين فخذيه وبكى.. كلّ ذلك كان يحدث حول عمر بينما هو يقف مذهولاً، عليّ قد قُتل، عليّ ذلك الرقيق الرفيق الباش الهاش قُتل وهو من بقى.

لن يكون هناك عزاء قبل الثأر، لذا سيُصلّون عليه بعد المغرب ويُدفن في الظلّمة راحلاً في صمت.

حملوه إلى المسجد، كان الجثمان خفيفًا كريشة، يركضون خلفه بكلّ قوّتهم، الحاج عبد الله يُحدّث نفسه، عليّ يركض إلى إفطاره حيث فرحة صومه، يتحسس التمرات في جيبه، هو أيضًا أحضر إفطاره وما إن أذّن المؤذن لصلاة المغرب؛ أخرج التمرات حيث دم عليّ قد امتصته الثمرات واختفى لونه الأحمر ولم يبقَ منه إلا بعض الدم الجاف الذي أزاله، لم يفكّر الحاج كثيرًا، أو يهتمّ إن كان أكلها حلالاً أم حرامًا، يكفي أنها امتزجت بدماء عليّ، وضعها في فيه وأفطر ثم قام لصلاة المغرب، وما إن أنهاها خلف الإمام حتى وجد نفسه يقف ويُطالب الجميع بالانتظار، مضى نحو المنبر وما إن وضع يديه على حافته حتى أغمض عينيه، واعتلى سلّمه دون أن يرى حتى وصل إلى أعلاه، هتف في الجميع دون أن يفتح عينيه، فهو لم ينس ما حدث لمهدي، قائلاً:

أيّها الناس ماذا تنتظرون، الهواجس تُحدّق بكم حتى صار بطلكم عاجزًا ووضيعكم قائدًا، صرتم قومًا كبيركم صغير وأرضكم مياه مجارير، أحلامكم تتطاير مع العصافير وتختفي كدخّان أفران الطين.

أطفالكم يُقطّعهم حافظ البنداري وتمخرون في البحر بلا سارٍ، والغرق محدّق بكم من كلّ جانب، متى تتيقظون؟ متى تفتحون الجفون؟

اليوم مات عليّ، عليّ بسمة قفط وروحها الغائبة، من قتله؟ آل قاعود أم ابن عمه أم الأرض الوعرة غير الممهدة أم أنتم جميعًا، ممن تطلبون ثأركم يا آل البيه؟ من زايد؟

أليس جدّكم هو من أحضرهم ليؤازروه في حربه الانتخابية؟ ألستم من أدخلتموهم بلدنا؟ كيف الحال اليوم؟ انقلب السحر على الساحر، درويش الشاطر يشتري من الفقراء حاجتهم للمال ومهدي السعدي يشتري منكم التعاطف لقضيّته وآل قاعود يشترون أبناءكم.. أنتم تبيعون كلّ شيء، قفط صارت مزادًا ضخمًا، فلتقتصوا إذن من أنفسكم.

أتدرون لماذا أنا أُغلق عينيّ؟ حتى لا أراكم فأرى حقيقتكم، اليوم فقط تمنّيت لو أنني أحيا في صومعة بعيدة لا تصلون إليها فلا أراكم ثانية، لكنّني لا أستطيع ولن أفعل، فرغم كلّ شيء مازلت أؤمن بكم.

لماذا لا تُمهّدون أرضكم، وتنظفون مجاريركم وتُطيّبون دياركم؟ لن أهرب..

سأكون ذراعك يا عبد الدايم وسندك يا فاطمة، سأكون عليّ يا عمر، عليّ مات بين ذراعيّ ليسكن قلبي.. الشباب يدبّ في روحي، لماذا لا نبدأ من جديد؟ عليّ أنت لم تمت!

هبط أدراج المنبر ثم فتح عينيه وانضم إلى الصفوف يُصلّي الجنازة، بينما الجميع كان يتابعه بتأثّر حتى أولئك الذين ذكرهم بسوء، كانوا في حالة ذلك النوع من التأثّر الذي ينتهي بتطاير الحروف، ولم يبقَ من حروفه إلا الذي سكن بقلبه هو وحده.

* * *

شعر عامر بحركة خلفه تأتي من أول القبر، فتلفّت وراءه ليجده واقفًا تختبئ ملامح وجهه من عتمة الخلوة فلا تتّضح حقيقته، فقط كيان ما يقف لا يرى منه إلا ظلاً أو طيفًا.

ـ من أنت؟

ـ ألا تعرفني حقًا يا عامر رغم أننا تقابلنا كثيرًا؟

ـ نعم لا أعرفك، ولا أذكر أننا تقابلنا سويًّا.

ـ أنا من كنت وراء كلّ ذلك.

ـ أنت حقا هو؟

ـ نعم أنا الحصان والشيطان.

ابتسم عامر في سخرية وقال:

ـ امتطيتك يومًا.

ـ بل أنا من أوقعتك وامتطيت زوجتك.

رغم الظلمة إلا أن ملامح عامر اتّضح عليها الغضب والحنق حتى إنها كانت تظهر على نبرات صوته وهو يقول:

ـ سأقتلك!

ضحك الكيان ضحكة ارتجّت لها جدران القبر وهو يقول:

ـ أحقًا تظنّ أنك تستطيع؟

ـ الشيخ رمضان قال لي إني لا يجب أن أخاف ممن تحرقه آية.

باستهزاء واضح في نبرات الصوت الصادر منه قال:

ـ تحرقه آية؟ وتُضيّع على نفسك أن تعرف لماذا أتيت إليك؟

ـ لا يهم.

استطرد الكيان وتابع ما يقول دون أن يهتمّ بإجابته:

ـ لقد أتيت هنا للشماتة، اليوم حققت انتصارًا وأزلت عارًا لحق بنا منذ عاهد جدّي جدّك بألا نمسّ ذريّته، ثمانمائة عام ونحن نحيا في مهانة السخرية من أبناء جلدتنا، نتحيّن لحظة ننتقم فيها، نتابعكم من عصر إلى عصر ومن جدّ إلى جدّ، ولا نقوى على السير داخل دمائكم، إنها القواعد، الشياطين تفعل جميع الموبقات إلا أن تنقض عهدًا، ثمانمائة عام حتى وجدتك، وراهنت الجميع أنني أستطيع أن أصل بأحدكم إلى الرذيلة دون أن أقترب منه، قمت بانتخابكم كما يفرز أبوك البيض حتى وجدتك، أنت كنت هدفي، فتى جامح طموح يترك نفسه تنطلق به حيث هواها، إذن فلأُهيّء الطريق لهواه كي يقوده لي، والباقي كان يسيرًا لدرجة أبهرتني.

ـ لكنني قمت بثورة على نفسي وفررت من الأهواء.

ضحك الكيان ضحكة أكثر قوة وشراسة قبل أن يقول

ـ أحقًا تظنّ ذلك وأنت قتلت امرأتك وابنك؟

ـ إنها داعرة وابني دم نجس.

ـ أنت غبي، أصدرت أحكامك دون تقصٍ.

ـ أهناك تقصٍ أكبر من كوني رأيتها تتأوّه بين ذراعيك؟

ـ أرأيت ذراعيّ؟

ـ كلا، لكن وجدت أثر أصابعك على جيدها.

ـ كم أنك غبي، وهذا من حسن طالعي، أيّها الغبي الذي لم يعرف يومًا زوجته، هل تعلم أن الضيق هو سائل أحقنه في صدرها كلّ ليلة فلا تشعر بالأمان معك؟ كيف تحيا بين ذراعيّ من لا تأمنه؟ هل تقوى على ذلك؟ الغريب أنها تحمّلت وقويت أكثر مما كنت أتوقع، ضغطتُ على أبيها كي يقنعها بالاستسلام فرفضت مرارًا وتباعًا، هي لم تبع روحها لي أيّها الغبي.

ـ كيف ذلك؟

ـ كنت أراها كلّ صباح تجلس في مواجهة المرآة ودموعها السوداء تخضّب

وجهها الغضّ، تُمسك بشفرة حادة وتُقرّبها من وريدها ثم تُبعدها، رغم كلّ شيء لم تقوَ على الانتحار ولم تنهر لدرجة الاستسلام لي، مرارًا وتكرارًا والدها يحثّها دون جدوى، وحتى أنا لا أستطيع أن أقرب فرج امرأة دون أن تأذن لي أو تخضع لإرادتي، حين فقدت الأمل فيها فعلت ما يجب عليّ، وهو إيهامك أنها تخونك، داهمت حلمها، أتيتها في صورتك، كانت تقول أحبك لك، كانت تنام معك في الحلم على صورتك الحقيقية كما كانت أولى لياليكما معًا، قبل أن أحقنها بالضيق فتستيقظ لتراك كائنًا مختلفًا قاسيًا لا يشعر بها، وكل ما يربطها به مجرد صفقة، كيف لمن عاشت وحيدة بلا أم أو صديقة أن تشعر بالأمان مع من يعتبرها سلعة؟ جيدها فقط هو كلّ ما توصلت إليه، فتركت عليه بصمتي، الحقيقة أنك صدّقت كلّ ما قاله لك عبّاس لأنك لا تريد أن تصدق أنك لست أكثر بشاعة مني، هواك حملك على أنها داعرة ولم تتيقن بل لم تُرد أن ترى، هي أيضًا لم تُدافع عن نفسها، لماذا تُدافع عن نفسها أمام رجل لا يشعر بها... كلّ ما حدث بيني وبينها كان إيحاء في منام، أضغاث حلم، ذلك كلّ شيء، وأنت قتلت بلا رحمة، فأجبني ما هي جريمتي؟ أنا لم آمرك بقتلها، بل إنني تعجبت كيف لم تقتلها أنت فور أن أخبرك عبّاس، إنها نفسك الشيطانية أيّها الشيطان الإنسي، أرادت كلّ شيء حتى إنها لم تحصل على شيء.

* * *

إسعاد تجلس أمام المرآة، عيناها جمرتان من نار، تنظر إليهما فيحترق بهما جسدها ويذوب قلبها حزنًا، العذاب جلاد تكتوي بسياطه، والقابعة في المرآة زهرة ذابلة ثنائية الأبعاد، لماذا لا تكون الحياة كالمرآة سطح أملس بلا عمق، لماذا الحزن يحفر قبره بقلوبنا، والضيق سجن يحتجز بداخله أرواحنا، ونضرة الوجنات تغادرنا؟

لماذا أصابعك يا عامر كأنّها أشواك دامية، وشفاهك كمكعبات الثلج بلا روح؟

حدّثت نفسها:

«أُحبّك؟ سؤال يراودني كلّ مساء، فأقفز به داخل أحلامي لأجدك كما أريدك فارسًا على صهوة جواده، ينتزعني بين ذراعيه القويتين ويضمّني لنطوي الأرض ونطأ كلّ ما يجمعنا بها، فنمزّق الحزن والضيق.

أُحبّك؟ سؤال يجذبني إليه عقلي فأسأله هل تعرف غيره؟ برجك العاجي يا إسعاد ليس به عديد الخيارات، وهو زوجك.

لماذا نستيقظ من أحلامنا سريعًا؟ وأين تذهب حين استيقاظنا؟ لماذا لا أجدك؟ فقط كلّ ما أراه جثة بلا قلب.

البشر يا عامر جيف لها قلوب، أما أنت فجيفة بلا قلب.. حدّاد له قلب فولاذي.. حلم الثراء أيقظ الوحش بداخلك فطردني.

أُحبّك؟ سؤال أسأله لقلبي كلّ حين فيجيبني لماذا أنتِ صامتة؟ لماذا لا تواجهيه؟ لماذا لا تطلبين الطلاق؟ فأُجيب أن له بداخل أحشائي أمانة تكبر

كلّ يوم.

لماذا لا تقسين عليه؟ وأيّ قسوة أكبر من الصمت.

شهر واحد فقط مرّ علينا معًا، لكنّه كألف شهر على روحي التي شاخت، لم أعد كما أنا، أبحث عن الحقيقة التي تسوقني إلى الراحة فلا أجد.. أبي، لماذا تعاملتَ معي كأنني بضاعة تبيعها وقتما تشاء لتشتري بثمنها رضا سيّدك.. أبي، لمن تفعل ذلك؟

دموعي إنصهار شمعة تُذيب بشرتي، أزهار وجناتي صار نداها خطوطًا سوداء تحفر طريقها عبر وجهي، لأبتلع مرارة الأيام، لماذا أنا من يحدث لي كلّ ذلك؟

هذا المقص قد يكون فيه الخلاص لروحي، حاد كقسوة قلبه صنعته روحه، فلأغرسه فيما تبقى لي من قلب وأقتلُني

وابني؟ لماذا يخرج للحياة وهو بلا أم أو أب؟ أمه حطام بشرية، وأبوه بلا روح.

لكنّه قد يملك روحًا، قد يصبغ حياتي بلون مختلف، وربما حمّلني عاقبة حياته وإرثه من جدّ مهووس وأب قاسٍ.

فلأقتل نفسي، فلأُقرّب المقصّ أكثر ربما استطاع اجتثاث الألم».

كانت تنظر إلى المرآة نظرة أخيرة، ترى إسعاد التي في المرآة، تستجديها بالتوقّف، تُذكّرها بأحلام صباها في العالم الوردي، بالأزهار المتناثرة تحت قدميها، بالجنّة الخالدة التي تنطلق فيها مع عامر في منامها كلّ مساء، قبل أن يحملها بين ذراعيه ويجلس بها تحت شجرة فتضع رأسها على فخذه وتشعر بالأمان.

«اهربي إلى الحلم» هكذا قالت المرآة.

ـ إلى متى؟

ـ حتى يموت الزمن.

ـ لم أعد احتمل.

ـ فليعينك الله.

ـ الله؟ منذ ولدت وأنا بعيدة عنه لا أراه.

ـ عدم رؤيتك له لا تعني أنه ليس بجوارك.

ـ فلماذا يتركني وحدي بكل ذلك الألم؟

ـ حتى ترينه.

سقط المقص من بين أناملها، ثم دفنت وجهها بين كفّيها كأنّها لم تقوَ على النظر إلى نديمتها الوحيدة في الحياة «المرآة»، كانت لا تريد أن تستمع إلى المزيد، ثم وقفت تجرّ في أذيال ثوبها ضيقها وألمها، قبل أن تُلقي جسدها فوق السرير وتنظر إلى السقف كأنّها تخترقه بجمرات عيونها، كانت تبحث عن الله، تريد الشكوى والبوح إليه إلا أنها قالت بقلبها: لم أعد أحتمل!

* * *

الأفكار تتصارع داخل عقل عامر، هل بالفعل قتل نفسًا بريئة ووأد طفله الأول؟! الشيطان أخبره أنه لا يستطيع نقض العهد ولا يستطيع السير في دمائه، وفرج زوجته كان يحمل علقته، بعضًا من دمائه النجسة الطاهرة.. لذا صرخ، صرخ صرخة أقوى من كلّ ضحكات الشيطان المتشفّية، ثم سقط على وجهه، همّ الكيان بالرحيل إلا أن عامر استوقفه قائلاً:

ـ هل لي بسؤال أخير؟

ـ نعم، أنت اليوم تُجاب عن كلّ استفساراتك بصدق، يكفي أنك صرت سبب مجدي.

ـ عدني بالصدق.

ـ أعدك.

ـ البرديّة؟ هل أنت من ألقيتها هناك؟

تلعثم الشيطان، فنشوته بزهوة انتصاره أنسته أنه قد وعد، والشيطان سجين عهوده:

ـ كلا، لا أعرف مصدرها، ربما هي فرعونية بحق، بل إنني لم أصل بك إلى أول السرداب، فهو لم يكن هدفي، هدفي الأساسي هو أن أجعلك ترتكب كبيرة من الكبائر، لم أفلح في جعلك تقتل زوجك رغم كلّ شيء، فكنت أخطط لشيء آخر، أن تتبع السحر مثلاً أو غيرها، لكن فاجأتني البرديّة كما فاجأتك.

ـ الآن عرفت.

ـ ماذا؟

ـ غير مهم، المهم أنك لا تخشى أن أحرقك بآية، وأنا معك، فالآية يجب أن يتلوها قلب مؤمن، أما أنا فقاتل يلعنه ربه حتى يُقتص منه، لا أحمل سلاحًا إلا ذلك المعول.

أمسك معوله وفعل أمرًا غريبًا، قام بجرح ذراعه طوليًا حتى نزف الدم، واقترب رويدًا رويدًا من الكيان، ظلّ يدور حول الشيطان وهو يستطرد:

ـ أما أنت فاليوم يوم مجدك الذي حققت فيه انتصارك وأعدت لقبيلتك منزلتها بين سائر القبائل، لكنّك نسيت أن دمائي محرّمٌ عليك السير بداخلها.

قالها وهو يعتصر جرحه فتقطر دماؤه على وجه الكيان:

ـ وحين تمسَّك أيضًا، ربما لم تعرف ذلك، لذا أنت تحترق، لن تحيا إلا بعارك، قتلك شيطان أكبر وأقوى وأعتى منك، شيطان كان جدّه عابدًا، لم يخشَ ما تخفيه الأرض منكم، اقتحم مملكتكم وعاهد كبيركم، شيطان هو منكم رغم أن دماءه مزيج من كلّ شيء.

قالها وهو يسقط باكيًا.. كلماته لا تتضح معالمها، بينما الشيطان يتأوّه، يصرخ

وهو يحترق قبل أن يتلاشى كلّ شيء ويسقط عامر مغشيًا عليه..

فتح عينيه من غيبوبته يتحسس جرحه، هل كان كلّ ما حدث بينهما حلم آخر، لا يظن، فالحقائق كانت جلية والأحداث وضحت بعد الغموض، صدره هو الآخر يحترق بينما جرحه يتوقف عن النزيف ولسانه لا يردد إلا قولاً واحدًا:

ـ اللهم فاشفع لي عندها، أني لم أكن أعلم، أني لم أكن أرى، أني لم أكن أسمع، ربي قد حملت البرديّة لي حتى تُسمعني، حتى تُريني، حتى تُعيدني إليك، فاتّبعت هواي وأخذتني العزة بالضلال، فاغفر لي، ربي يا من أعنتني على الشيطان أعنّي على نفسي وأذبني شوقًا إليك وإليها، واغفر لي ما لم أعلم واغفر لي صنيعتي واغفر لها وارحمها، ربي إن كتبتَ لي أنني سأكون رفيق الشيطان في الجحيم لن أبالي، كلّ ما أباليه الآن أن تسوقني إلى الحق وتُبدّل ظلمتي نورًا، فلن أبرح خلوتي حتى تغفر أنتَ لي، وحتى تصفح هي عنّي.

* * *

ما أرّق مهدي السعدي في تلك الليلة وطرد النوم من عينيه هو أن الحاج عبدالله ذكر في خطبته اسم حافظ البنداري الطبيب الكبير في الأقصر، الآن فهم كلّ شيء وعرف ماذا حدث لابنه، انتظر الشمس لترسل أول خيوطها ثم هبّ واقفًا، أخفى سلاحًا في جيب جلبابه الجانبي ونادى على مجدي ابنه الأكبر ولثم جبينه قائلاً:

ـ إن لم أعد ثانية، فأنت ربّ تلك الأسرة، ارعَ أمك وأخاك رشدي، وقاتل قسوة الحياة حتى تصل إلى مرادك.

ـ أبي، ماذا هناك؟

ـ لا شيء، فقط حان وقت القصاص.

ثم أسرع خارج البيت قبل أن ينبسّ مجدي بكلمة أخرى، ومضى نحو موقف سيارات الأقصر والأفكار تتصارع بداخله، ماذا عليه أن يفعل وما هو السيناريو الذي سيتّبعه، لم تُعجبه كلمات عبد الله في خطبته عن كونه يشتري تعاطف الناس، هو فقط كان مفتتنًا. ومن هذا المنطلق قرّر ألا يستدرّ عطف أحد عليه هو وأسرته بعد اليوم، وإن كُتبت له النجاة فلن يعطف على أحد، هذا اليوم سيضع فاصلاً وحدًّا لكل المآسي التي عاشها، هو لن يقتل سليمان ولن يستطيع أن يعيده، ابن عمّه أضاع الأرض وانتهى الأمر، لكن من اختطف ابنه وقطّعه إربًا عليه أن يدفع الثمن.

ما إن وصل الأقصر حتى بحث عن مستشفى حافظ البنداري، وما إن وجدها حتى ذهب إلى مكتبه مباشرة، حاولت مساعدته إيقافه إلا أنه أخبرها أنها مسألة حياة أو موت، لذا اخترق غرفة المكتب ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام الطبيب الذي طلب من مساعدته مغادرة الغرفة.

جلس مهدي على أحد المقاعد يضع يده داخل جلبابه لتُمسك بسلاحه، ثم قال:

ـ أنت لا تعرفني، أنا أحد ضحاياك الذين بترت أرواحهم!

همّ حافظ أن يضغط على زر الجرس على سطح مكتبه إلا أن مهدي أوقفه بسلاحه قائلاً:

ـ لا تجعل أفكارك تقودك إلى مصرعك، أنا رجل اختطفتم طفله.

ـ من تكون؟

ـ أوَتعرف أسماء الأطفال الذين تختطفهم؟ هم بالنسبة لك أرقام، كلّ رقم يُدرّ دخلاً ما، لا أعلم رقم طفلي ولا ما أدرّه عليك!

تلعثم الطبيب، لكنّه حاول أن يربط جأشه ويُظهر ثباته وهو يقول:

ـ لا أعرف شيئًا عمّا تقول.

ـ لكنّني أعرف كلّ شيء، أعلم ماذا تصنع أنت وشركاؤك، ذئاب جائعة تنهش الأرواح!

قالها وهو يضع فوّهة مسدسه على رأس الطبيب ويشدّ صمّام الأمان ليتأكد أن السلاح في وضع الاستعداد، وقال بهستيريا مصحوبة بصوت مبحوح متقطّع:

ـ كما ترى أنا قد بلغت حدّ الجنون ولم يعد لديّ أمل آخر، فقد أحرقت كلّ سفن العودة وماضٍ في قراري، اليوم إما أن أقتل أو أُقتَل.. أرى في عينيك أنك تُخبئ شيئًا ما وأنا أثق في حدسي، فإما أن تُجيب أو تنتهي حياتك.

ـ ماذا تريد؟ قتلي؟ وهل قتلي سيُعيد إليك طفلك؟

ـ وهل حياتك ستُعيده أيضًا؟

ـ كلا للأسف، طفلك الآن عبر البحار، لكن كيف عرفت؟

تساقطت دموع مهدي وأصابعه تعتصر الزناد متجاهلاً الردّ على الطبيب، بينما حافظ يستطرد وهو لا يرفع عينيه عن سلاح مهدي الذي تحوّل للوقوف أمامه:

ـ هو لن يعود ثانية، لكن أنت تستطيع أن تصنع حياة جديدة، يمكنني أن أمنحك مالاً وفيرًا يهب لك ابنًا جديدًا، ما الفارق بين الأطفال؟ كلّهم سواء!

ـ الدم!

ـ الدم؟ أنت تؤمن بذلك الهراء؟! الطفل هو ما تصنعه أنت بحنوك عليه ولطفك به، أنت من تُربّيه على ما تريد.

ـ ماذا تقصد؟

ـ ما رأيك أن أمنحك ثمن طفلك؟

ـ طفلي لا يُقدّر بثمن!

ـ ثمن طفلك طفلين!

كانت نظرات مهدي الزائغة هي جوابه، الآن هو أمام صفقة، كفّتين في ميزان واحد وعليه أن يختار؛ القصاص أو الحياة، تلك الأموال ربما تُغيّر حياته

وتنتشله من مستنقع الظلام الذي يغرق فيه، والعواطف التي ليس لها موطئ قدم على تلك الأرض الفاسدة، لذا عليه أن يصل لثمن مناسب أو يكون مصيره حبل المشنقة ويترك طفليه للعالم الأسود..

ـ بل ثلاثة!

ابتسم حافظ، عرف أنه اشترى حياته بالمال، ثم قال:

ـ أنت تعلم أنني لست وحدي، لي شركاء، لذا نصيبي في كلّ طفل لا يتجاوز الثلاثمائة ألف جنيه.

ـ سآخذ مليونًا!

ـ اتفقنا، فلتعد غدًا كي أُجهّز المبلغ لك.

ـ لن أبرح المكان إلا ومعي حقيبة المال.

ـ لكنّ خزينة المستشفى لا يوجد بها ذلك المبلغ.

ـ فلتبعث أحدًا يجلبه من المصرف، لن أمضي من هنا إلا ومعي المال.

حاول حافظ أن يُثنيه ويقنعه بالرحيل دون جدوى، فاستسلم أخيرًا وأرسل في طلب المال، حتى حصل مهدي على حقيبته المليونية تغمره سعادة جمّة، الآن صار من أصحاب الملايين.

أما حافظ الغاضب فقد طلب منه أن يُوقّع على ورقة يتنازل فيها عن طفله له حتى لا يبتزه ثانية، فوقّع مهدي بأصابع مرتجفة، أرسل في طلب أمن المستشفى لا ليتبعوه أو يمنعوه، هو لا يريد فضح أمره، ومليون من الجنيهات ليس هو المبلغ الذي يُقاتل من أجله، بل عن كيفية وصول سلاح إلى مكتبه، حياته وُضعت اليوم في كفّة مقابلة لحياة طفل، ثم قام بإجراء اتصالات حتى يُبلغ شركاءه بما حدث ليصلوا لمن أخبر مهدي.

سار مهدي في شوارع الأقصر لا يدري ماذا يصنع، يحمل الكثير من الأفكار المتصارعة، اليوم باع طفله وأيضًا قبض الثمن، هل هذا المال حرام؟ بالتأكيد هو كذلك، لكنّ اغتصاب إعارته ورهن أرضه واختطاف ابنه؛ أليس كلّ ذلك حرامًا.

الشعور بالجوع يعصف به ومطاعم الأقصر الفخمة تُرحّب به الآن، لكنّه لا يجد في نفسه القدرة على دخول أحدها، هو يريد طعامًا واحدًا حلالاً ليكون آخر ما يطعمه حلالاً في حياته، فبعد اليوم سيكون مهديًّا مختلفًا.

لم يُفكّر طويلاً، قرر المضي إلى الساحة الرضوانية حيث ضريح الشيخ أحمد رضوان، استقبلته قبّته الخضراء التي تشرح الصدور إلا صدره، هو محمّل بحقيبة الأوزار، باع ابنه بضاعة وقبض ثمنها بخسًا، دعاء الشيخ معلّق في صدر الساحة «اللهم سق إليّ من أردت سعادته وسق إليّ أرزاقهم، ولا تشغلني بهم عنك».

السعادة أيها الشيخ الجليل؟ ما هي السعادة؟ هي حلم المرضى الذين يظنون أن هناك في تلك الحياة ابتسامة دائمة، لقد بعثر الحزن روحي

فتناثرت أشلاءً تحت أقدام المارّين ولم تعد.

جلس على إحدى الأرائك بجوار الفقراء والمحبين الذي هو ليس منهم، هو أتى فقط ليطعم طعامًا يثق أنه حلال، قدموا به إلى المأدبة وجلس على المقعد الحجري أمامه أطباق العدس والعسل الأسود والملوخية، لا شيء غير ذلك، رغم عدم تجانس الطعام إلا أنه كان يأكل بنهم شديد كأنّه آخر زاد له، ينظر إلى المشرفين على المأدبة، يُحدّث نفسه، ما الذي يُجبر كلّ هؤلاء أن يُضحّوا بأوقاتهم وجهدهم من أجل إطعام القادمين كلّ يوم؟

لا شيء غير أنهم قدموا لسعادتهم كما دعا الشيخ.

قام من على مقعده ودخل الضريح مُحمّلا بأوزاره، جلس في مواجهة الشيخ قائلاً:

«أعلم أنك غاضب لأنني دنست ساحتك بوزري، لكن يا سيدي إن الضعيف على الأجواد محمول، أنا ضعيف جدًا أمام نفسي التي تقلبني كما تريد وتقودني حيث تشاء، يومًا ترفعني فأراني مهديًّا منتظرًا، ويومًا تهبط بي أدراج النصّابين وبائعي لحم أبنائهم، وما حملني إليك فقط إلى هنا هو أن أجد شيئًا واحدًا فقط يُذكّرني بما كنت عليه».

ثم رفع يديه للسماء وقال:

«اللهمّ تقبل دعاء عبدك الشيخ أحمد رضوان واجعل في قدومي اليوم هنا سعادتي مهما طال بي الأمد بعيدًا».

قالها، تبلل شاربه الكثّ بأثر دموعه قبل أن يحمل حقيبته ويمضي، هو يُحدّد وجهته ويعرف ماذا سيفعل.

حمل طفليه وزوجته ورحل عن قفط، تلك البلد التي اتهمته بالجنون والخبال لا تستحق أن يصرف فيها ماله، رحل وهو يُقرّر أن يستثمر ذلك المال، لذا لم يُفكّر طويلاً في طرق استثماره، ما عليه هو البحث عن آل قاعود، هم يعرفون كيف يصنعون من التراب ذهبًا.

* * *

كعادته كلّ صباح حين تُسقط الشمس شعاعها الأول لتُداعب نافذته الخشبية ذات القوائم الحديدية، يبدأ جولته اليومية.. أخرج حماره، ولكن هذه المرة وضع الحاج عبدالله قفصين على كلا الجانبين، ثم قفز على ظهره ومضى ليجمع البيض.

الطريق الوعرة لن تُوقفه، ولكنّ شعوره بالوحدة يأكل قلبه، كلّ رفاق رحلته يتركونه حتى عمّار، وكأنّ حياته عقد تنفرط حبّاته درة بعد أخرى، عامر، عليّ، عمّار؛ الكل راحل، وهو كما هو يسير في طريقه اليومي الوعر ينادي بصوت جهوري لا يتناسب مع عمره:

حووووووووووم..

يسمع ضحكات عليّ فيبتسم، عليّ كان هنا بالأمس يضحك كلّما سمعها:

حووووووووووم..

الجسر يقترب رويدًا، زراعات القصب على جانبيه اختطفت منه روحًا ذكيّة، لكنّه الآن يتحداها، يسير بثبات هاتفًا:

حووووووووووم..

السيّارات المجنونة تقطع الطريق السريع دون الأخذ في الاعتبار أنها منطقة سكنية، فالساعة المبكّرة تُغري السائقين وهو لا يتوقف ولا ينظر، يمضي في طريقه واثقًا في حماره الذي يقطع الطرق الوعرة والسريعة.

حووووووووووم..

يأتيه هتاف من أحد البيوت التي تركها، يعدل عمامته ثم ينظر إلى الخلف، إنه يوسف جرجس يستدعيه ليعطيه ما لديه من البيض، يدير حماره ليعود ويخطر بباله سؤال؛ هل الحمار حين يلتفت للخلف أو يعود يستطيع إكمال مسيرته كما تعوّد أم يصاب بفقدان الذاكرة؟ يشد اللجام ويستدير دون أن يُجيب.

يصل إلى يوسف الذي يُبادره بنظرة دهشة، لم يكن يتصوّر أن يُكمل الحاج رحلته بعدما حدث بالأمس.

يهبط الحاج عبد الله عن حماره ويصافح الشاب الذي يدعوه إلى الداخل، فيقول له الحاج:

ـ حسنًا، لكن لي شرطان للدخول، أولاً أن تصنع لي كوبًا من الشاي، والآخر أن تجد لي منضدة بجوار مصدر للكهرباء.

ـ الشاي أمر مفروغ منه أيّها الحاج الطيب، لكن ما حاجتك للكهرباء؟

ـ حاجة في نفس يعقوب.

ـ أعرف تلك السورة، إنها يوسف.

ـ هل تقرأ القرآن يا ولدي؟

ـ فقط سورة يوسف، استهوتني منذ كنت صغيرًا حين كان يقول لي المدرس «يوسف أعرض عن هذا»، كنت أريد أن أفهم ماذا يعني ذلك، أتدري أيّها الحاج؟ أكثر ما أتعجب له هو رغم أن يوسف قضى شبابه في السجن، حين عُرض عليه الخروج أبى إلا أن تظهر براءته، كيف له ذلك؟ هل هناك من يفقد حريته قهرًا وظلمًا كلّ ذلك الوقت؛ وحين تعود له حريته يرفضها إلا إن كانت مقترنة بشرط ما؟

ـ الحريّة إن كانت ناقصة صارت سجنًا آخر، ولو لم تظهر براءته كان سيرى السجن في عيون كلّ من حوله، وهو نبي اختار السجن ليتقرّب من الله، فإن كُتبت له الحريّة يجب أن تكون إلى الله، أما وإن خرج وصار العزيز وهو مذنب كيف يُصدّقه العامّة؟

ـ يا سيدي هذه هي الحياة حولنا، نُصدّق المنصب لا الشخص، نتعبّد بأقوال العزيز ونعرف أنه مفسد!

ـ صدقت يا ولدي، إنها طرقنا الوعرة للسير في تلك الحياة، الأشواك التي تُدمي أقدامنا العارية.

صمت الحاج عبدالله هنيهة ثم استطرد:

ـ إنه حديث ذو شجون، فلندعه ولتحملني إلى منضدتك التي هي بالقرب من مصدر الكهرباء.

ـ حسنًا يا عمّاه.

اصطحب يوسف الحاج إلى غرفة الضيوف وهيّأ له مكانًا بالقرب من مصدر الكهرباء، فأخرج الحاج كشاف البيض من أحد القفصين ووضع القابس في فتحة الكهرباء، وانتظر حتى أتى يوسف محمّلاً بطبق ضخم مليء بالبيض، الذي نظر إليه مندهشًا فاغرًا فاه:

ـ ما هذا يا عمّاه؟ هل ستقوم بفرز البيض هنا؟

ـ أجل.

ـ لماذا؟

ـ حتى أُعيد إليكم البيض المُخصّب.

ـ تُعيد إلينا البيض الفاسد؟

ـ ليس فاسدًا، لكنّه يحمل سر الوجود؛ «الدم».

ـ وماذا نفعل به؟

ـ تُعيدونه إلى حظيرته.

ـ لكنك كنت تشتري منّا البيض دفعة واحدة ولا نهتم بالصالح والطالح، الفاسد والنافع، كنت تتحمّل خسارتك وحدك، الآن لن تُحاسبنا إلا عن البيض الصالح؟

ـ آن الآوان لنتشارك جميعًا في الخسارة والمكسب، آن الآوان لكي يشعر الجميع بأهمّية البيض، ولكن لماذا تُسمّيها خسارة؟ فلنسمّيها إعادة استثمار، ربما حان الوقت لنهتمّ بالتفريخ وتربية الدجاج، حان الوقت لصيانة سرّ الوجود.

ـ عمّاه، لم أقل ذلك كي أُحدّثك عن الخسارة أو أنها تؤرّقني، لكنّني كنت أريد أن أفهم.

ـ فلتفهم يا ولدي، لقد اكتشفت أنني قاسي القلب، قاتل بلا رحمة، لا أهتم لأمر أحد، اكتشفت ذلك بالأمس، كم كنت قاسيًا على عامر، لم أمنحه حق أن يدافع عن نفسه، وبحثت بداخلي، وجدتني قاتلاً محترفًا، أقتل الأجنّة في البيض المخصّب بلا رحمة، ألا تستحق قلوبنا بعض اللين؟ ألا يستحق الدجاج بعض الرحمة؟ إن كنا لا نستطيع أن نحمي أبناءنا فلنرحم طيورنا، إن كنا لا نستطيع التحليق فلنجبر كسر أجنحة حمائمنا، قلوبنا أرض وعرة يا ولدي تفوح منها رائحة المجارير كبلادنا، إلى متى؟ ألا نستحق أن نُعيد حساباتنا وقراءة قلوبنا من جديد لتلين؟

قالها واغرورقت عيناه في دموع لا تنتهي قبل أن يُربّت يوسف على كتفه ويبتسم إليه قائلاً:

ـ صدقت.

قرّب منه الشاي فاحتساه الحاج قبل أن يُقلّب البيض بين أصابعه ويضعه في الضوء ليُخبره أيّ البيض يصلح للطعام وأيّه صالح للحياة.. فكلّ البيض صالح لكنّ عيوننا هي التي لم تكن ترى.

حمل الحاج أقفاصه ووضعها على حماره، واستأنف جولته يمرّ من دار إلى دار وقرية إلى أخرى، يجمع البيض وينتخب منه الصالح للطعام ويُعيد إلى الأهالي المخصّب منه، حتى انتصف النهار وأصبحت الشمس فوق الرؤوس، ذهب إلى منزل صديقه عبد الدايم البيه، كان الحزن مخيّمًا على جدران المنزل، حتى إن الستائر كانت تقطر دمعًا وهي تُغلق النوافذ لتُخفي أشعة الشمس، أما عبد الدايم فمازالت عيناه زائغة لا يعي ما حوله، يرى أعداءه محدّقين به من كلّ جانب، بينما رفيقه عبد الله يُحدّثه عن ذكرياتهما معًا حين كانا طفلين يحفظان القرآن، يُذكّره بعصا الشيخ تهامي التي لا ترحم، يُذكّره برفيقهما الشيخ رمضان حين كان يقرأ «خُلق الإنسان من عجل» بكسر العين وليس فتحها. فيضحكان.. وكيف كانا يُحاكيان خوار الثور كلما رأياه، لكنّه أصبح فيهم إمامًا، ربما كان ذلك عاقبة سخريتهما منه، فيضحك عبد الدايم الذي اكتشف أنه يحمل جعبة من الذكريات لا تتوقف عند صراعه مع الصهاينة، لكنّه كان يسجن نفسه في تلك الفترة.

يلج سيّد عبد الحميد الغرفة فيُقبّل جبين عمه ثم يجلس في أحد أركان الغرفة ليضع رأسه بين ركبتيه، يُشير له الحاج عبد الله فيأخذه إلى خارج الغرفة، يجلسان بجوار الباب فيقول له:

ـ يا بني لم يحدث كلّ ذلك بسببك، أنت أخطأت لكنّك لم تقتل.

نظر الفتى للحاج وعيناه الحمراوان زائغتان، فأكمل الحاج:

ـ لا تدع ندمك يحتجزك بداخله، بل اجعله دافعًا لك لتنطلق إلى ما يجب عليك أن تصنعه.

ثم رفع الحاج عينيه إلى فاطمة التي قدمت بالغداء إلى زوجها عبد الدايم وكانت تهمّ إلى دخول الغرفة، فانتظرها حتى خرجت ثم قال لها:

ـ أنتِ لستِ وحدك يا فاطمة، كلّنا أهلك، عمر ابنك يحتاجك وزوجك عبد الدايم لم يعد له غيرك، حتى سيّد ينتظر تربيتة على كتفه، أنتِ سراج الدار يا فاطمة فاحرصي أن يبقى نورك ساطعًا، فلتحيي من أجل من تُحبّين، حينها لن تشعري بأنكِ وحيدة.

نظرت له بأسى وهي تُحدّث نفسها كيف يعظني الآن وأنا مكلومة القلب، ماذا يعرف هو عن الأبناء حين نفقدهم وهو ترك ولده يرحل، حديثها الداخلي لا يبلغ لسانها لكنّها حاولت أن تصير رابطة الجأش، فهي بحاجة إلى وجوده في بيتها، فذراعاه يحملان ريح عليّ الذي كان آخر ما تطوّق بهما.

رحل عبد الله عن دار صديقه ومضى في طريقه إلى داره، يُعيد الحمار إلى الحوش ويحمل من عليه القفص، وبينما يهبّ للقيام سمع صوت حركة خلفه، ليجد أخاه بدوي يسأله:

ـ أين عمّار؟ ماذا فعلت بابني؟

ـ سيعود يا بدوي.

ـ سيعود؟ من أين؟ لقد قدمت به إلى هنا لأحميه.

ـ لا تقلق يا أخي، عمّار سيأتي قريبًا، هو يفعل ما يتوجّب عليه.

ـ و ما الذي يتوجّب على ابن السابعة؟

ـ أن يُعيد البسمة للأرض.

ـ أيّ بسمة؟

ـ ابنك بين يدين تحفظانه، لم يُقتل أو يُختطف أو يُقطّع إربًا أو يُباع في مزاد، أو تأتيه رصاصة تخترق قلبه أو يُدفن حيًّا، أفلو كان هنا لاستطعت أن تحميه؟

ـ على الأقل كنت سأحاول!

ـ هو رحل كي يحميك حين يعود، ثق فيّ يا بدوي، الخير ما فعلت، وحين تشتاق إليه حتى تذوب ستحمله إليك الرياح لتراه، هذا ما أعدك به.

ـ لكن لماذا؟

ـ العلم يا بدوي، العلم، نرضخ هنا في قيودنا الماديّة، شوارعنا المزرية الضيّقة، حتى إن انفتحت لنا الدنيا صرنا تائهين، فلتدعه ينطلق حتى إن عاد أوصلنا إلى الحقيقة.

صمت بدوي ولم ينبس بحرف، هو يثق في أخيه ويعرف أنه اختار الخيار الصائب، لكنّه لا يقوى على فراق ابنه، وضع كفّه على وجهه وصارت عيناه تهطل مطرًا ويُفكّر فيما سيقوله لوالدة الصبي وماذا حدث له.

انطلق الحاج عبد الله إلى محطته الأخيرة في ذلك اليوم حيث قبر ابنه ورفيق جولاته عليّ، دفن وجهه في شاهده وصار يُحدّثه كمن يُسامر صديقه، صار يُحدّثه عن قراره بفرز البيض في ديار الأهالي ويُحدّثه عن أخيه الذي لا يتحمّل الفراق، ويُعاتب نفسه قائلاً:

«عامر.. أخبرني عن عامر يا عليّ، أهو بخير؟ يشتعل فؤادي نارًا عليه.. أنا القاتل يا عليّ، أنا من قتلته وقتلتك، أنا من أضعتكما، كيف لم أقوَ على حمايتك وكنت بجوارك؟ وكيف تركته يرحل وكنت أستطيع أن أحتويه؟ كان يحتاجني ولم يجدني.. عليّ، هل تغفر لي؟ وهل عامر سيغفر لي؟ هل سآراكما ثانيةً؟ هل ستحملكما لي الريح مرة أخرى أم تبعثرني كهباء منثور؟ أذوب اشتياقًا لكما كشمعة يقطر سائلها نارًا يُذيب جسدها..»

قالها وهو يسقط بجوار القبر حتى تغبّرت عمامته وجلبابه من تراب المقابر، بينما لسانه لا يردّد إلا قولاً واحدًا:

عيني لغير جمالكم لا تنظرُ.... وسواكم في خاطري لا يخطرُ
صبرت قلبي عنكم فأجابني.... لا صبر لي لا صبر لي، لا أصبرُ
وظلّ يُردّد لا صبر لي لا صبر لي لا أصبر، يردّدها مرارًا وتباعًا حتى صمت لسانه للأبد.

* * *

ثلاثة أيام مرّت منذ قتل عامر زوجته وأباها كانت كافية لأن تفوح الرائحة الكريهة وتعمّ المنطقة، رئيس المباحث لم يأتِ وحده كي يعرف ماذا حدث، بل اصطحب معه عضو البرلمان عن الدائرة «صابر الهادي»، ذلك الرجل الذي لا يعرف كيف يقرأ أو يكتب لكنّه يحمل أكبر ميزة وهي كيف يحصل على ما يريد دون أن يُقدّم شيئًا في المقابل.

في هدوء تام كانت قوة الشرطة تقتل الدار بحثًا عن دليل يشي بسرّ غموض تلك الجريمة وتُخبرهم أين ذهب عامر.

ما جعل صابر الهادي ينتبه ويرفع حاجبيه ويُقطّب جبينه ويُفكّر في قرار وجب عليه اتخاذه هو تلك البرديّة الملقاة في إحدى الغرف، وتلك الحفرة الضخمة بجوارها الطلمبة، لذا قال لرئيس المباحث:

ـ إن الجريمة متعلقة بالآثار.

ـ نعم، فيم تفكّر؟

ـ أُفكّر فينا، بيت مهجور بلا صاحب، من اشتراه قُتل، ومن قتله غير موجود، رجل وابنته غريبين صارا جثتين بلا رفيق، والقصّة تكمن في الآثار، ألسنا نحن أحق بكل ذلك؟

رفع رئيس المباحث حاجبيه بعدم فهم، إلا أن النائب البرلماني أكمل:

ـ نحن نُمثّل الحكومة، لماذا لا نصنع سورًا ضخمًا يحوي تلك المنطقة المهجورة، ندفن فيها الجثتين ونُنقّب فيها عن الآثار ونُتمّ ما بدأه هؤلاء، ولا نتحدّث في جرائم قتل أو غيرها، ماحدث هنا فقط أن الآثار قرّرت ضمّ تلك الأرض إليها (قالها وضحك).

ـ و الرائحة الكريهة والشائعات؟

ـ أهل قفط خير من ينسون، تُرهقهم تكاليف الحياة حتى إنهم لن يروا السور، ثم إنك تعلم أنني خير من يتعامل مع الآثار ويفهم فيها، هذه لعبتي يا صديقي، شاركني فيها وسنربح كثيرًا.

ألقت عينا رئيس المباحث ووافق، وبادرا معًا في جمع الأشياء المطلوبة لصنع السور الضخم.

* * *

## الخميس ١٠ شوال ١٤٣٢/ ٨ سبتمبر ٢٠١١

الأعوام تركض عامًا يتبعها عام، وقفط كما هي شوراعها الضيّقة على حالتها، لا شيء جديد.

جاد درويش الشاطر الذي تخرّج هذا العام في كليّة الآداب يستند بظهره على أريكة بجوار منزله كما يفعل كلّ وقت أصيل وحيدًا، رفاقه كلّهم رحلوا، يتذكّر حين كانوا أربعة، مجدي وسيّد وربيع كلّهم تركوه.

ربما سيّد عبد الحميد مازال في البلدة إلا أنه كأنّه ليس فيها، بعد مقتل ابن عمه وإحساسه بالندم صار لا يبرح منزل عمّه، كان ابنًا لعبد الدايم وذراعه المبتورة، حتى إنه كان يناديه عليّ، وكان لا يخرج إلا معه، كلّ ذلك لم يُفزع جاد، لكنّ ما يفزعه هو إحساسه بأن سيّد يتجنّبه لأنه يحمل له جانبًا خبيثًا منه.

يُقسم جاد بينه وبين نفسه أنه لم يوافقه على حبّه لإكرام، وأنه نصحه مليًا بالبعد عنها، لكنّ المراهقة أكبر، فلماذا يُحمّله الآن نتيجة ما حدث، لماذا هجره صديقه، وأخيرًا وجد إجابة تُريحه ولو نسبيًا، ربما لأنه ليس لديه وقت، لقد صار سيّد طالبًا في كلية الطب، وهو الآن في أسيوط يلتمس العلم، وحين يعود لا يجد وقتًا، فكلّ وقته ملك لعمّه.

تمنّى جاد له الخير حين وصلت أفكاره إلى تلك النقطة وهو يتذكّر صديقيه الآخرين، مجدي مهدي السعدي، وربيع عوض قاعود؛

كلاهما رحل مع أبيه وانقطعت أخباره تمامًا، وتركاه هنا وحيدًا في قفط يُراقب في الليالي الظلماء الكلاب وهي تتصارع من أجل كلبة لاهية تتنتشي حين تراهم يتنابحون من أجلها، يركضون خلفها يطاردونها من شارع إلى آخر.

هذه كانت متعة جاد الليلية، أما الصباحية فلا يوجد ما يمتعه، فحديث الناس عن أبيه المرابي لا ينتهي، بل ونوادره التي لا تنتهي، يذكر روايتهم عن بائع السمك الذي اقترض منه بعض المال بالربا، وكان درويش الشاطر كلّما مرّ على حانوت السمك أخذ منه ما يشتهي دون أن يدفع، فيخصمه البائع من الدين إلى أن فوجئ بدرويش الشاطر يُطالبه بالمبلغ كاملاً، وهو من كان يظنّ أنه قد سدّده بضاعة من السمك، فتأتيه ابتسامة درويش الشاطر الساخرة:

ـ كل ما أعطيتنيه من السمك كان مكرمة منك، أما الأوراق فلا تعترف إلا بما تُوقّع عليه.

هكذا كان والده يصنع، ولهذا اعتزله جاد.. يجلس على أريكته وقت الأصيل يُراقب الفلاحين يجرون خلفهم بهائمهم عائدين بعد يوم مضنٍ من الحقول، يحيا داخل عقله في عالم نسجه هو من أحلامه، هو لم يكن كذلك، كان يجلس على السور مع أصدقائه ليُراقب عورات الفتيات، لكن بعد أن استمع إلى خطبة الحاج عبد الله يوم وفاة عليّ، ورأى الدموع تبُلّل لحى الحضور وتُغرق وجوههم، وما إن خرجوا من المسجد ودفنوا عليّ حتى عاد كلّ شيء

كما كان، عرف أن العالم ما هو إلا أضحوكة كبرى، نفاق غير متناهٍ؛ لذا قرر الهرب، جلس على أريكته يشاهد ويمصّ شفتيه تحسّرًا على ما وصلت إليه قفط، تسعة أعوام وهي تعجّ في نفاقها.

ما أيقظه من أفكاره هو ذلك القادم من بعيد، هو يعرف ذلك الوجه جيّدًا، لكن من غير الممكن أن يكون هو القادم، إنه ربيع عوض قاعود صديق طفولته وصباه.

هبّ من على أريكته ورحبّ بصديقه بينما تعلو ملامحه الكثير من الأسئلة:

ـ ربيع؟ هل عدتم؟

ـ نعم.

ـ كيف؟ ألا تخشون آل البيه؟

ضحك ربيع ضحكة ساخرة وهو يقول:

ـ وكيف إن عرفت أن عمر البيه هو من بحث عنا ودعانا للحضور؟

ـ لا أفهم، كيف يدعو المرء قاتل أخيه؟

ـ هو لم يدعُ عمي زايد، بل دعانا نحن آل قاعود دونه، وعمّي زايد لم يقصد قتل عليّ، ثم إن عمر هو الذي بحاجة إلينا، بعد الثورة انضم للحزب الإسلامي كما تعلم، وقرّر خوض الانتخابات، ولقلّة خبرته في ذلك المجال استعان بنا، نحن نملك الخبرة والنفوذ، جدّه استعان بنا ثم بعده صابر الهادي، نحن الأخبر والأكثر دراية في دروب الانتخابات لنحسم صفقة أخرى، مساندته في مقابل نسيان الثأر وأن يتركنا نعود لقفط في سلام.

ـ غريب أمر تلك البلد.

ـ هي كذلك دائمًا يا جاد.

ـ أيضع المرء يده في يد قتلة أخيه من أجل...

قاطعه ربيع قائلاً:

ـ الإسلام، نعم من أجل الإسلام، هذا ما قاله لأبي، أن كلّ شيء يهون من أجل الإسلام!

ـ وأنت يا ربيع؟ كيف حالك وماذا فعلتَ في كلّ تلك الأعوام؟

ـ كما أنا، تنقّلنا من مدينة لأخرى، بدأنا بالقصير فلم نبقَ بها طويلاً، رجالها ينزلون البحر فتشدّهم الريح بعيدًا إلى الجنوب حيث السودان والصومال ويعودودن بعد أشهر على جلودهم سياط الزمان، هذه ليست بلدًا نعيش فيها.. انتقلنا من مدينة لأخرى حتى أرسل إلينا زايد أن سفاجا مقر جيّد لنا، القرى السياحية في ازدياد والميناء عامر بالبشر، وهكذا نستطيع أن نعيد أمجادنا، وأنت يا جاد؟

ـ أنا قابع على صخرة الحياة أتأمّل وأتعجّب، التحقت بكلية الآداب وتخرّجت هذا العام، وها أنا أنتظر الوظيفة.

ـ قابع على صخرة الحياة؟ منذ متى تتحدّث بالفلسفة؟
ـ منذ استمعت لخطبة الحاج عبد الله.
ـ الحاج عبد الله الرحماني، لقد افتقدت ابتسامة ذلك الرجل كلّ صباح حين كان يأتي إلينا ليجمع البيض، كنت أُحبّ أن أبدأ يومي بوجهه الباش.
ـ قد مات منذ زمن طويل يا ربيع، وترك تجارته لأخيه بدوي الذي سار على نهجه في فرز البيض في ديار الأهالي، إلى أن ظهر مرض أنفلونزا الطيور وقامت الحكومة بإعدام الدجاج فبارت تلك التجارة، وقام بدوي بفتح حانوت صغير لبيع الحلوى للأطفال، وكنّا نسمعه دائمًا يقول: تذكّروا يا أهل قفط أنني كنت أعمل في السياحة وكنت أول القفطيين الذين اقتنوا هاتفًا نقّالاً حين كان ثمنه يكافئ ثمن قيراط من الأرض، كان يقولها ويضحك بينما ننظر إلى حانوته ونتعجب، كيف لذلك الرجل أن يضحك هكذا بعد ما فعلت به الحياة ما فعلت، بعد أن اختفى ابنه ومات أخوه وبارت تجارته، آل الرحماني دومًا يُصيبونني بالارتباك.
ـ اختفى ابنه؟
ـ نعم، اختفى يوم مقتل عليّ، يقولون إن الحاج عبد الله أعطاه لرجل غريب.
ـ يبدو أنه فاتني الكثير.
ـ أنا أيضًا فاتني الكثير، فاتتني الرفقة والأصدقاء، ما زلت أحيا على ذكرياتنا.
ـ قم بنا نعيد الذكريات يا جاد.
ـ إلى أين؟
ـ أوحشتني قفط، دعنا نتجوّل فيها.
ـ نعم هيّا.
قام الصديقان يتجوّلان في دروب البلد الضيّقة، يُحدّثان أنفسهم بذكرياتهم:
ـ أتذكر حين كنا نلعب الكرة هنا وقمت يا ربيع بعرقلة مجدي حتى أنه أصيب إصابة كبيرة، فذهبنا به إلى الحاج عبد الكريم العظّام ليقوم بتدليكها وتجبيرها؟ لم ينسَ لك ذلك يومًا، أتدري؟ لقد افتقدته كثيرًا، ولا أعلم عنه شيئًا منذ أمد بعيد.
ـ مجدي ووالده مهدي السعدي كانا معنا في البحر الأحمر، الغريب أن مهدي كان معه مال وفير لا نعلم من أين أتى به، يريد أن يُنشئ مشروعًا يستثمر فيه أمواله، فأشرنا عليه أن يقوم بفتح مقهى في سفاجا، بينما قمنا نحن بفتح شركة للخدمات السياحية، لم نكن نظن أن مثل مهدي يستطيع أن ينجح في التجارة بسرعة، لكن يبدو أن داخل مهدي جينات قاعودية (قالها وهو يضحك)، لقد كان ينطلق بسرعة ضخمة نحو المجد، ثرواته كانت تتدفق بغزارة عظيمة أدهشتنا، حتى إنه بحث عن مجال آخر، قام بفتح مصنع للأكياس البلاستيكية في المنطقة الصناعية بأسيوط،

وبعدها مصنع آخر، وانتقل إلى هناك، وهكذا صار نجمه يسطع في سماء الأثرياء بسرعة لم نتخيّلها.

ـ ماذا تقول؟ مهدي السعدي؟ ذلك الرجل مصدر سخرية الجميع؟

ـ نعم هو!

ـ سبحان الله، يبدو أن الحياة لا تدور بالطريقة التي نعرفها، أبعد أن كان مضافًا إليه صرنا نحن مفعولين لأجله؟!

ـ حديثك بالفلسفة هذا يُربكني (قالها وهو يضحك) لكن ماذا تعرف أنت؟ أنت يا جاد أسير صخرتك، تجلس لتشاهد لكن لا تهبط للميدان.

ـ أنا؟

ـ نعم، وحسنًا إليك التحدّي، ما رأيك أن نتسابق حتى شجرة النبق العتيقة؟

ضحك جاد قائلاً:

ـ أتعلم أن تلك المنطقة ما زالت مهجورة؟ حتى بعد أن شيدت الآثار في تلك المنطقة سورًا لا يقترب منها أحد!

ـ أمازال الحديث عن وادي الذهب بين قفط والقصير قائمًا؟

ـ أجل.

ـ أتمنى أن نبحث عنه يومًا، لكن هل الشجرة ما تزال خارج السور؟

ـ نعم.

ـ فلنتسابق إذن إليها.

ـ أنت مجنون يا ربيع، لقد كبرنا!

ـ كلا.. ربما أنت، أنا مازلت شابًا! هيّا لنركض.

أمسك كلٌ منهما بأطراف جلبابه وشمّره عن ساقيه، ثم قام بعقده عقدة فوق بطنه لتبرز السيقان السمراء المشعرة، قبل أن تطوي الأرض طيًّا، قطع الشابان الشوارع ركضًا، لم يهتمّا بنظرة السخرية على وجوه الرجال حولهما، كلّ ما كان يهمهما هو اقتناص لحظات شبابهما التي ضاعت حين رحلا عن نفسيهما، يركضان وهما يملآن صدورهما بنسمات الهواء الدافئة في سبتمبر الممتزجة بريح المجارير دون توقّف، يبدو أن ربيع كان الأكثر حماسة فكان كالغزالة الرشيقة، يتقافز ويبتعد رويدًا إلى الأمام، حتى لاحت الشجرة من بعيد فزادت من حماسته، وانطلق بقوة أكبر حتى اختفى.

بينما جاد خلفه يُحاول التقاط أنفاسه ويبحث عنه بعينيه فلا يراه، أفكان كلّ ذلك سرابًا وربيع لم يعد؟

كلا بالتأكيد، كان يركض معه، نادى بصوته الجهوري:

ـ ربيع، ربيع..

يأتيه صوت من أسفله:

ـ أنا هنا يا جاد، لقد سقطت في الحفرة!
مدّ جاد يده ليُخرج صاحبه الذي جلس بجواره زائغ العين قائلاً:
ـ لقد رأيت طيفًا بأسفل الحفرة، كأنّه يجلس للتشهّد ويرفع يديه لأعلى!
ـ يبدو عليك الهذيان.. لن أقتنع بذلك وإن أقسمت، ربما كان خيالاً.
ـ نعم ربما، كانت مجرد تهيّؤات من أثر السقطة.
ـ دعنا نردم تلك الحفرة حتى لا يسقط فيها آخرون.
ـ أجل، معك حق.
أخرجا معولاً كان ملقى على أرضية الحفرة وقاما بإهالة التراب عليها حتى ردموها تمامًا، بينما ربيع جال بخاطره سؤال:
ـ منذ متى وتلك الشجرة عادت تُثمر؟
ـ لا أدري.
قالها جاد ولم يُفكّر كثيرًا بالأمر، مضيا عائدين إلى الأريكة عند بيت جاد ليُكملا حديثهما الذي لا ينقطع.

* * *

كعادته كلّ خميس اصطحب الشيخ أبو المكارم تلميذه عمّار من بيت فهيم الأسيوطي، ذلك الرجل الذي كلّفه الشيخ مع أسرته برعاية عمّار.
فالشيخ لم يكن يُقيم في موطن، كان أسير الجبال، وقد أخذ على عاتقه أن يحاول أن يجمع في عمّار جناحي الإيمان ـ الحقيقة والشريعة ـ لذا أوكل رعايته إلى مُريده فهيم الأسيوطي، فالتحق عمّار بالمعهد الأزهري يدرس الشريعة، بينما كلّ خميس يصطحبه الشيخ بعيدًا في الجبال يُحدّثه عن الحقيقة، عن القلب، عن النفس، عن الروح، عن الهوى، عن الوجود، عن الله.
يكلّفه بالأوراد والذكر والصلاة على النبي، وفي تلك الليلة سأل الفتى شيخه:
ـ شيخي، حملتني يومًا لأرى الحياة بعين الإيمان فرأيت الناس في غيّ عظيم، هوى متّبع، شح مطاع، عادات لم يُنزل الله بها من سلطان، حتى التصوّف الحقيقي صار نادرًا، وصارت قبور الأولياء كعبة الأهواء، حتى إن الأولياء صاروا يتأذّون بمحبّيهم، بين ظهرانيهم تُقام الموالد وينتشر الابتداع، أضيق ذرعًا من هؤلاء، شيخي لماذا لا أهجر كلّ ذلك وأفرّ معك إلى الله؟
ـ صبرًا يا ولدي، ورفقًا بهم.
صمت الشيخ لحظات يتأمّل الفتى، ثم قال:
ـ اليوم مات عامر.
رفع الفتى حاجبه في تعجّب ثم قال:
ـ عامر؟
ـ نعم، ابن عمك.

ـ ألم يكن ميتا؟
ـ نعم، كان حيًّا، بل كان أكثر الأحياء حياة، كانت الرياح تحمل لي كلّ ليلة رائحة شواء كبده، كان يتلظى بنار الندم والخوف، هجر البشر وعاش في القبر، يحيا على ثمار النبق التي تتساقط داخل قبره الذي يخرج منه كلّما شعر بالعطش قبل الفجر ليرتوي، عامر اعتلى جواده واتّبع هواه وانطلق، لكن أنتم يا آل الرحماني خيولكم مقيّدة بوتد، مهما طالت حبائلكم تعودون.
صمت هنيهة ثم استطرد قائلاً:
ـ أتعلم يا عمّار؟ لقد قتل ابن عمك شيطانًا بدمائه!
ـ قتل شيطانًا بدمائه؟ هل يمكن ذلك؟!
ـ نعم يا ولدي.. إن التوبة حين تسري صادقة في دماء أحدهم تستحيل حممًا تحرق الشياطين.. لكنّ عامر لم يكن يعرف ذلك، ولا أدري لماذا فعلها.
كان الاندهاش قد بلغ مبلغه في نفس عمّار، كيف يمكن أن يقوم عامر بقتل شيطان بأسلوب يجهله.. كان يهمّ بسؤال أستاذه، لكنّه حين قال له لا أدري كيف فعلها جعل اللغز باقيًا بداخله، فحاول أن يستمع أكثر لقصّة ابن عمه، وأن يجعل شيخه يُحدّثه أكثر، فسأل:
ـ وكيف مات؟
ـ دُفن حيًّا يا ولدي، كان غارقًا في مناجاته فلم يشعر بهم وهم يردمون خلوته، من قتل يُقتل ولو بعد حين.
ـ شيخي، كيف تعرف كلّ ذلك؟ كيف تشمّ رائحة الشواء وتسمع الأنين وتراه يقتل الشيطان ولا أحد على الأرض يعلم بوجود عامر؟
ـ إنه فضل الله يا بني يؤتيه من يشاء.
ـ هل هذا يعني أنك خير من عامر؟ أقصد هل هي مكرمة حباك الله بها لأنه يحبك دونًا عن البشر؟
ـ لا أعلم يا ولدي، لله جنود يُسخّرها في خدمة الإنسان، يُوحي إليها ـ كالنحل مثلاً ـ يهبها الحكمة لتخدم من يُحبّ، ويظلّ الإنسان ذو النفس الأمّارة بالسوء خيرًا منها، بالقطع أنا بشري وأحمل ذلك الوحش بداخلي الذي أجاهده وأحاول أن أُروّضه، لكن ما قصدته ليس بالضرورة أن من يهبه الله مكرمة أفضل من غيره، لعلّ ربه يستدرجه من حيث لا يعلم، وصدّقني أنا من أولئك الذين لا يأمنون مكره، شافعي له هوحبّي، ونبراسي له هو قلبي، أهيم له وبه وأناجيه فوق سفوح الجبال، أُحبّك لأنك أنت، أعبدك لأنك أنت، أتقرب إليك لأنك أنت، إلهي يا من منحتني الحياة اجعلها لك، وهب لي سُلّما من السماء أصل به إليك، ربِ أضناني الهوى والفراق ووحشة الحياة، الدنيا سجن من حولي يضيق، ونفسي يرهقها الوجع، ربي يا من رحمتك وسعت كلّ شيء وعمّت الأرجاء ارحمني من نار الفراق ولا تتركني طرفة عين وصلني بك وإليك.. يا ولدي أسفل الضلوع قلب

ينبض حجمه أصغر من قبضة اليد لكنّه أوسع من الكون، لا تملأه إلا بحبّه، والحب اتّباع، والاتّباع هجرة إليه، والهجرة خلوة من دونه، فاهجر واختلِ مما دونه تصل إلى بغيتك، والهجرة ألا تكون مثلي تفرّ من الدنيا، بل اجمع حطب الدنيا وأوقد فيها نارًا يُريك طريقك إليه، وحطب الدنيا نفوس البشر، يا ولدي حين أخذتك من عمّك لم أكن أريد أن أصنع منك راهبًا تبني صومعة في الصحراء، بل أريدك شيخًا يصنع صومعته داخل قلوب الناس فيلجأون إليها من نار الدنيا لتمدّهم بالحياة الحقيقية يستأنسون بالدفء بين جنباتها، فاهجرهم بينهم واختلِ فيهم وكن معهم وبهم.. يا ولدي لو استطعت فعل ذلك وجمعت الشريعة بالحقيقة لكنتَ أرفع منزلة وأطيب قدرًا منّي، يا ولدي الولي ليس الذي يهجر الناس ويمشي فوق الماء أو يطير في الهواء، الولي هو من يقرأ القرآن ويعمل به صادقًا، حتى أن بصدقه يصل للقلوب.

أنصت الشاب إلى معلّمه يحاول الفهم والاستيعاب، حين هجر الشاب بلده وترك عمّه كان ذلك ليخلي قلبه عن الهوى، هذا ما عرفه، الخلوة عمّا دونه هي الطريق إليه، وهذا لا يكون بهجرة البشر والهيام في الفيافي بل بين الناس، فحتى والده يزوره بين الفينة والأخرى كلّما أحرقه الشوق إليه.

كيف تختلي عن الناس وأنت بينهم، تلكم هي المسألة.

ردّد الشيخ مع مريده وردهما الأسبوعي كلّ ليلة جمعة من صلوات ابن مشيش:

(يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا، وانصرني بك لك وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك وحل بيني وبين غيرك.

الله * الله * الله

إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد..

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

## الجمعة ١٠ من المحرم ١٤٤٥ هـ/٢٨ يوليو ٢٠٢٣

عاشوراء أخرى تُغرق قفط في روائح القرفة الذكية ممتزجة بعبق عطور الجمعة، الجميع يغتسلون في أنهار النور استعدادًا للصلاة، شوارع قفط باتت كأنّها رحبة تتّسع للجميع رغم أنها نفس الشوارع، ممهّدة غير وعرة، الابتسامة على الوجوه يستقبلون بها بعضهم بعضًا، والمسجد تُعطّره البخور متأهّبًا للترحيب بالمصلّين، الذين تدافعوا للصلاة قبل موعدها بساعة حتى صار كأنّه ليس هناك موطن لقدم داخل المسجد، فوضعت الفرش خارجه، رغم صيف يوليو الحار إلا أن ذلك لم يُثنهم عن التسارع في الجلوس وذكر الله وقراءة سورة الكهف قبل الصلاة، الكلّ يجلس متجاورًا.

زايد قاعود وعوض وربيع بجوار الشيخ سليمان وعمر وأصحابه، القاتل في جوار وليّ الدم بعد أن صفح له يقينًا بقلبه ابتغاء مرضاة ربه، ووافق على أن يعود لأهله في قفط بعد سنوات من الغربة والوحدة.

حتى السارق كان يجلس بجوار من سرق، درويش الشاطر بجوار بائع السمك بعد أن أعاد الحق له.. بينما خارج المسجد وراء الفرش الممهدة أرائك اصطفّت يجلس عليها يوسف جرجس وأصدقاؤه وأقاربه.

العدل يُظلّل سقف المسجد والإيمان قابع في القلوب، ورجل يخترق الصفوف نحو المنبر، يمضي في ثقة خاشعة، أهل قفط لم يعرفوا ماذا تعني الثقة الخاشعة وكيف تجتمع الثقة مع الخشوع إلا حين يرونه، يرتدي عمامة أزهرية تُوحي بأنه عالم، بينما عيناه تشع بنور الإيمان، يقترب بتؤدة نحو المنبر، يعتليه خطوة بعد خطوة حتى إن وصل أعلاه جلس، فيؤذّن المؤذّن إيذانًا ببدء الخطبة، يقف الشيخ عمّار الرحماني مبتسمًا لم يُغمض عينيه كما فعل عمّه يومًا، لا يفتنه ما يرى كما حدث لمهدي يومًا لأنه كان يعلم، كان مهيّئًا، حتى الشيخ رمضان الذي بلغ من العمر عتيًّا ويجلس على مقعد في آخر المسجد بجوار بدوي؛ حدّث نفسه أنه لم يشعر بجمال المنبر إلا حين رأى عمّار يُزيّنه.

بدأ عمّار الخطبة بالثناء على الله وديباجة قصيرة شاملة، حتى قال:

«أخبرني شيخي أبوالمكارم أنه حين قابل عمّي عبد الله أول مرة فوق جبل حميثرة، قبض قبضة من تراب الجبل ثم بسطها في وجه الرياح التي بعثرتها كأنّها هباء منثور، بينما عمّي لا يفهم.

فقال له شيخي: القلوب أيّها الحاج الطيب كالتراب الذي خُلقت منه، تأخذها الأهواء حيث تشاء، وإن لم تُقاوم أهواءها ضاعت في الكون الفسيح.

ثم قبض شيخي قبضة أخرى من تراب حميثرة ولكن هذه المرة وضع فوق التراب بعض قطرات الماء حتى صار التراب طينًا، ثم بسط كفّه إلى الرياح التي لم تستطع أن تقتلع القلوب، فقال:

الماء هو من يقاوم الأهواء، اجعل قلبك نديًّا ليّنًا.

سأله عمّي: وكيف؟

قال شيخي: الحب، الحب وحده ما يقاوم الأهواء، إن أحببت لأخيك ما تُحبّ لنفسك قاومت هوى الأنانية، وإن أحببت الله قاومت هوى المعصية، ازرع الأرض حبًّا شجرًا يقاوم عواصف الأهواء تكن الأرض أرحب ممّا تظنّ».

كلّ أهل قفط الآن يستمعون فيُتبعون رؤوسهم مطأطئة، تتذكّر ما مضى وقلوبهم وجلة خوفًا ممّا يأتي، هناك شيء ما صار ينبض بصدورهم لم يستمعوا له قبلاً، يُحرّكه عزم على عدم العودة، دموعهم هذه المرة لم تكن كسابقتها يوم أن خطب عمّ الفتى خطبته، هذه المرة كانت مرارتها تمنحهم لذّة تمنعهم عن العودة في طريقهم المشؤوم، شهور قليلة منذ عاد عمّار لقفط لكنّها صارت كأن مرّ عليها قرون من الزمن عمّا كانت عليه، وهناك في آخر المسجد يجلس عليّ بوجهه الصبوح مبتسمًا، ويداه تلامس يدي الحاج عبدالله الذي كان يومئ برأسه في رضا

ما إن قال عمّار: قوموا لصلاتكم.

حتى وقف يوسف جرجس وأصدقاؤه وتركوا أرائكهم وهم يُزيلون عن أعينهم بعض الدموع ماضين نحو كنيستهم.

قال ملاك ليوسف:

ـ غريب أمر ذلك الشاب، ما إن أستمع إليه حتى يجتاحني الإيمان وحبّ الرب، وأشعر كأنني ظامئ أنتظر شربة منه.

ـ نعم يا ملاك، كلّما استمعت لعمّار ازددت إيمانًا ويقينًا بالرب، الشاب لم يختصّ المسلمين وحدهم، كلماته سهام تُصيب القلوب والأرواح دون تفرقة، تمامًا كالأديان.

حين دخلا الكنيسة أشعل يوسف شمعة ثم قال: أدعوك أن تمنح السلام لقلوبنا وأن تُغرقنا في محبّتك.

ثم تلا «**سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ**».

قالها بينما عيناه لا تتوقف عن الدموع.

* * *

بعد انتهاء صلاة الجمعة مضى عمّار يقطع شوارع قفط نحو مكان هو يعرفه يقينًا، وصل إلى شجرة النبق العتيقة التي ما زالت تُثمر، جلس بجوار معول ملقى أسفلها ونظر نحو الأرض قائلاً:

«ما أغناك عن كلّ هذا العذاب يا عامر، تسعة أعوام تحرق كبدك كلّ ليلة، يزوي الندم جسدك كشمعة منصهرة فترتقي إلى السماء روحك، أكلّ ما حدث كان يجب أن يحدث كي تأوب؟ أم إن القصاص وحده كان يكفي؟ حقيقة رغم كلّ ما تعلّمته إلا أنني أقف جاهلاً بين يديك، كلّ ما أعلمه أنه «لذلك خُلق القصاص»، نفوسنا أكثر ضراوة علينا من سوط الجلاد، خلق الله

القصاص حتى نبرأ من سقام نفوسنا ويصير للرجاء نافذة تُقاوم قنوطنا في الرحمة، وأنت لم تقنط يومًا، هكذا قال لي شيخي، كيف لم تقنط وأنت تحت التراب تحيا، كيف لم تقنط وقد أغرقوك بالتراب حيًّا، الحقيقة الوحيدة التي أعلمها يا ابن عمّ أنني لم أبلغ من العلم الذي يستوعب ما فعلتَ، فأبقى عاجزًا تحت شجرة أثمرت حين حفرت هنا بيتك واخترت لنفسك أن تهجر وتخلو وتركض للحقيقة الوحيدة الصائبة، الحقيقة التي خُلقنا عليها، أغبطك وأتعجب لأمرك».

ثم تلا سورة ياسين وجلس يدعو له حتى اقترب وقت العصر، فعاد إلى المسجد.

* * *

أسيوط..

على سطح أول ناطحة سحاب في الصعيد وقف مهدي السعدي يتذكّر ذلك الكابوس الذي يطارده كلّ ليلة في الفترة الأخيرة، يرى ابنه حسام كأنّه وحش شعره اختلط بالتراب ووجهه معفّر وثيابه مرقّعة، بينما نبتت له مخالب؛ فيرتعد الأب حين يراه بينما الطفل يضع مخالبه في بطن والده ويقتلع منه كبده بلا رحمة قائلاً:

ـ هذه عوضًا لكبدي التي بعتها!

كلّ يوم نفس الكابوس، لا أحد يستطيع تحمّل كلّ ذلك الألم، الآن هو يقف على سطح برجه العالي بعد أن طاولت رأسه السحاب، يتذكّر يوم أن ذهب إلى الساحة الرضوانية ودعاء الشيخ عن السعادة، هو لا يشعر بالسعادة الآن، رغم أنه فوق برجه الشاهق لكنّ شيئًا ما بداخله يرفض كلّ هذا، يقترب من سور السطح، يُحدّث ابنه مجدي الذي يقف بجواره دون أن ينظر إليه:

ـ يومًا ما اعتليت المنبر، افتتنت ورأيت كأنّ الناس أنعام، أما الآن وأنا أعتلي ناطحة سحاب فلم أعد حتى أراهم، الناس اختفت من ناظري كأنّهم سرب نمل أطأه بأقدامي، لقد صارت فتنتي أشدّ، ما لي وكلّ هذا؟ حسام يقتلع كبدي كلّ ليلة وبرجي يطأ رؤوس البشر، وأبحث عن مهدي فلا أجده.

كان مجدي يستمع لوالده بشيء من القلق والتوتّر ولكنّه لم يردّ، فاستطرد الوالد:

ـ رأيت بعض الرجال يهبون أنفسهم للساحات، يُطعمون أفواه الفقراء دون أجر، وأنا أنتزع من الفقراء ما أطعموهم إيّاه حتى أضع حجرًا يكون لبنة لبرجي، كلّ ذلك حتى أجد السعادة؛ فهل وجدّتها؟ ربما هم من وجدوها، واهبو أنفسهم للساحات يبذلون الجهد والمال ويحصدون السعادة.

القلق يزداد على محيـا مجدي، هو يكاد يستنبط من حديث والده ما سيأتي، لكنّه استمع دون أن يردّ ووالده يلتفت إليه وينظر في عينيه مباشرة:

ـ مجدي يا ولدي، لقد أضعت يومًا أخاك ثم بعته، لكنّني لن أُضيّعكما أنت ورشدي، ما لنا وكل ذلك، ما لنا بالبروج المشيّدة وجبال الأموال

الشاهقة؟! كلّ ذلك سيزول، فلنبحث عن السعادة الحقيقية يا ولدي، أعلم أنه سيكون من الصعب عليك بعد أن تعبنا في حصد كلّ تلك الأموال التبرّع بها إلى جهات خيرية حتى نغتسل من ذنوبها، لكن يجب أن نفعل ذلك!

هنا رفع مجدي حاجبيه، فقد قال والده ما كان يتوقّعه ويستعدّ له، فقال:

ـ حسنًا يا والدي، دعنا نتحدّث عن ذلك فيما بعد، ولتهدأ قليلاً، ربما يجب أن تعود للمنزل وتنال قسطًا من الراحة، وفي المساء نبحث الأمر.

هزّ مهدي رأسه بالموافقة، قبل أن يُمسك بعضدي ابنه ويهزّهما وهو في طريقه إلى الهبوط قائلاً:

ـ لا مال يعادل ألم اقتلاع الكبد يا ولدي!

ثم فتح المصعد ليبدأ رحلة الهبوط بعد أن كان أعوامًا يصعد، بينما أخرج مجدي هاتفه النقّال وبحث عن اسم الطبيب سعيد أبو الفضل حتى وجده، فقرّب الهاتف من أذنه قائلاً:

ـ نعم أيّها الدكتور سعيد، يبدو أن الحالة تسوء، أعتقد أنه يجب عليك احتجازه في مصحّتك، فالسيل قد بلغ الزبى، سأنتظر رجالك هذا المساء ليصطحبوه.

ثم أغلق الهاتف وعلت محياه ابتسامة خبيثة، الآن آن الوقت أن يصير هو المدبّر الحقيقي لكلّ أملاك والده بعد أن اقتلعه عن طريقه.

سار نحو سور السطح تُظلّله غمامة اخترقتها هامّته، ثمّ هتف:

«أنا الملك، أنتم لا شيء، مهما تطاولتم لن تصل رؤوسكم لشسع نعلي، أنت يا من تسرق هناك، مهما سرقت فيجب عليك أن تبيع أخاك وتحتجز والدك كي تصل إليّ، لذا لن تصل، قديمًا كنت أعتلي سور المدرسة لأرى عورات الفتيات، الآن حتى عوراتكم لا أراها رغم أنكم لم تخفوها عنّي..»

ثم نظر في اتجاه مبنى أحد الأحزاب:

«أنتم أيها المجتمعون هناك، افعلوا ما شئتم، اصنعوا النظام الذي تهوون، فأنا النظام الحقيقي، أنا من أدير اللعبة.. أعوام مضت، كلّ أنظمتكم تهاوت تحت أقدامي وأنا من بقيت.. رأسي تعلو مآذنكم وأجراس كنائسكم، وأحلامي لا تحدّها السماء، بصاقي مطر تتبرّكون به، فأنتم كما قال والدي نمل يركض تحت أقدامي... أنا الملك، تركضون كي تقاوموني لكنّكم تُنفّذون مشيئتي وترضخون في قيودي وتُسبّحون بحمدي، أنا قنينة العطر، أنا قارورة الزيت، أنا وقود السيّارة، أنا جناح الطائرة. عيوني التي لا تراكم لضآلتكم، لا ترى حدًّا لأملاكي.. أنا الملك وأنتم حفنة من تراب...»

قاطعته حركة خافتة خلفه، فقال دون أن ينظر وراءه:

ـ ماذا فعلت يا رشدي؟

ـ قابلته وحدّثني نفس الحديث عن وادي الذهب الذي يربط قفط بالقصير،

قال لي إنه يعلم يقينًا باب السرداب ومن أين يبدأ، وحدّثني عن ذلك البيت المهجور الذي وجدوا فيه قتيلين وكيف أخفى صابر الهادي أمره، إلا أنه قال لي إن صابر ورفاقه لم يصلوا إلى شيء.

ـ هل شعرت أنه واثق مما يقول؟

ـ نعم يا أخي، وحتى إن بحثنا ولم نجد شيئًا فلن نخسر.

اعتلت علامات الغضب على وجه مجدي، وهتف في أخيه:

ـ الوقت نفسه خسارة أكبر!

تلعثم رشدي وهو يلوم نفسه، لكنّه قال:

ـ هو واثق تمام الثقة يا أخي.

ـ قلت لي ما اسمه؟

ـ اسمه عاشور الزهيري، يقطن في إحدى القرى القريبة من أسيوط.

ـ حسنًا يا رشدي، فلتُعدّ نفسك للعودة إلى قفط قريبًا مع ذلك الرجل.

قالها مجدي وعدّل من عويناته الشمسية وهو يمضي بتؤدة نحو المصعد، ورغم أنه كان على قمّة ناطحة السحاب إلا أنه كان يبحث عن زر الصعود.

## خاتمة:
## السبت السادس من يوليو ١٢٧٥ ميلادية/ العاشر من المحرم ٦٧٤ هجرية

رغم طول الرحلة من قلعة الجبل إلى أقاصي الصعيد في تلك الأيام من شهر يوليو شديد الحرارة، إلا أن القائد المملوكي صفي الدين رسول السلطان الظاهر لم يشعر بالتعب.

السفينة تمخر في النيل الفيروزي بتؤدة وانسيابية عذبة، الأيام تمرّ عليه وهو يشاهد مصر الحقيقية من بلد لآخر.. يتذكّر طفولته الصعبة وتنقّله بين تجّار الرقيق إلى أن أتى تلك البلد التي صار فيها قائدًا.. هي تستحق أن تكون بلده التي ينتمي إليها بلا شك.

يتذكّر أيام صباه حين أتى تلك البلد وشاهد كلّ شيء من تقلّبات وحروب، رأى الأناس الحقيقيين هنا، رأى شيخًا أعمى يحمل اللواء في موقعة المنصورة يُدعى أبو الحسن الشاذلي، وسمع عن شيخ آخر يُقاوم الصليبيين ليُعيد الأسرى المصريين يُدعى السيّد البدوي.

هو رأى كلّ شيء وكان حاضرًا حين وقف العزّ بن عبدالسلام خطيبًا في المماليك هاتفًا فيهم أنهم مازالوا مملوكين لأهل مصر ومن حق المصريين أن يبيعوهم، قالها في وجه الصالح نجم الدين أيوب ولم يخف، ثم وقف في وجه قطز حين أراد جمع أموال الرعيّة لقتال التتار، وقف في وجهه وأصرّ ألا يأخذ أموال الرعية إلا بعد فراغ بيت المال وبعد أن يجمع أموال الأمراء، كان حقًا سلطانًا حقيقيًا وليس سلطانًا للعلماء فقط.

كانت كلمات قاسية لها وقعها في نفس صفيّ الدين لا يقولها إلا وليّ، كيف يقف العزّ هكذا في وجه المماليك ولم يكن على أرض مصر من يحمل سلاحًا سواهم، ويقول لهم أنتم مجرد عبيد، هو رأى كلّ شيء هنا في مصر؛ الشيوخ التي تقاتل لآخر رمق من أجل حريّة الوطن والفلاحين وعامة الشعب الذين تركوا ديارهم وأهاليهم للجهاد ضد التتار والصليبيين، مصر ليست مجردّ بلد عادي، هي خليط متجانس من كلّ شيء، نسيج قوي متلاحم، حتى القادمون من الخارج كالشاذلي والعزّ يُصبحون مصريين يُقاتلون من أجلّ نصرة أهلها.

هو لا يذكر شيئًا عن أرض السلاجقة.. لم يكن له والد سوى مولاه، ولم تكن له أم سوى تلك الأرض، هي من آوته ومنحته العزّة بعد أن سلبتها منه الأقدار، لذا بات حامدًا ربّه كلّ ليلة على عطاياه.

هو الآن على مشارف إدفو حاملاً تلك الرسالة من السلطان للشيخ عبدالرحمن، إرسال السلطان لأحد أقرب قوّاده من المماليك البحرية هو تكريم للشيخ يستحقّه.. ويبدو أن صفيّ الدين كان يتمنّى أن يقوم بتلك المهمة، هو افتقد حلقات العلم التي كان يحضرها على يد الشيخ في

مسجد السلطان، يتعلّم منه علم الحديث.

لماذا غادر الشيخ القاهرة؟ هل آذوه؟ لماذا يضنّ عليهم من نور حديثه؟ كلّ تلك التساؤلات كانت رفيقته في رحلته حتى حطّت السفينة أخيرًا في ساحل إدفو.

حمل رسالته وبحث عن دار الشيخ حتى وصل إليها، كانت دارًا بالية ذات باب خشبي عتيق به مزلاج ضخم، قام بطرق الباب حتى خرج إليه رجل يرتدي قميصًا باليًا مليئًا بالرقع، وتعلوه ابتسامة وضّاءة رغم حالته المزرية، ما إن رآه صفيّ الدين حتى هتف:

ـ تاج الدين؟ لم أعرفك لوهلة!

ـ نعم أيّها القائد، أنا هو.

ـ ماذا تفعل هنا؟ لقد كنت فتىً صلبًا شجاعًا لك مستقبلاً جيّدًا، وربما كنت حاكمًا لتلك البلاد في المستقبل.. لقد كنت تتمتّع بالقوة والإقدام والذكاء، كنت أتابعك عن قرب.

ـ نعم يا سيدي، لكن حين قرّر الشيخ الرحيل عن القاهرة لم أتحمّل فاستأذنت قائد الجيوش كي يهبني إليه.. وأحمد الله أنه وافق.

ـ ماذا؟ أتترك المجد من أجل ذلك؟!

ـ المجد هو قلب وضّاء ونفس راضية مرضية.

ـ لكن...

ـ يا سيّدي لقد أتينا هذه البلاد مملوكين فصرنا ملوكًا وسلاطين، أهل تلك البلاد ليسوا أغبياء لكن لم يبهرهم ألق المُلك، فبحثوا عن المالك الحقيقي لتمتلئ به قلوبهم.. ثمّ من يكون السلطان الحقيقي في تلك البلد، أخبرني؟ نحن نقاتل بعضنا بعضًا من أجل كرسي، في حين أن الحاكم الحقيقي هم الضعفاء، هم من أجبرونا على القتال، هم من أخذوا أموال الأمراء التي منحوها إليهم، إن مصر ليست كما تظهر لك يا سيدي، ليسوا مجموعة من الضعفاء الذين لا يفهمون.. هم يرون كلّ شيء ويزهدون فيه.

ـ عجيب أمرك يا تاج.

ـ لا عليك يا سيّدي، دع أمري وتفضّل.. أنت كنت على سفر طويل وحان وقت الراحة، وأين ستجد الراحة إن لم تكن هنا؟

ـ حسنًا.. لكنّي لن أجلس أو أرتاح حتى أُتمّ رحلتي وأؤدي الأمانة.. أنت تعلم ما حدث حين خرج السلطان لملاقاة التتار، بحث عن شيخ صادق يخلفه، بحث كثيرًا ورغم وجود أولياء عديدين مثل البدوي وأبي العبّاس المرسي؛ لكن علمه بزهدهم الشديد أخجله من أن يطلب منهم ذلك، فطلب من الشيخ عبدالرحمن الذي انخرط في تعليم الحديث في مسجد السلطان فترة طويلة، فربما وافق، لكنّه فوجئ بالرفض من الشيخ.

ـ كان واهمًا لأنه لم يعرفه، كلّ ما رآه منه هو علمه لكن لم يخبر سريرته.

ـ وأنت؟
ـ وأنا لم أعرفه ولن أعرفه رغم أني أصحبه في داره، لكنّي رأيت زهده وكنت أعلم أنه سيرفض.
ـ حسنًا، فالسلطان أرسل معي خطابًا يشكره ويطلب منه الدعاء لينصره الله على ماتبقّى من شراذم الأعداء.
ـ الشيخ ليس موجودًا.
ـ أين هو؟
ـ مختليًا بسيّده.
ـ ماذا؟
ـ في خلوة يتعبّد.

* * *

رغم الظلام الطاحن العاصف بكل ماحوله كان يرى.. رغم أنه لم يطعم لقمة منذ أيام لم يكن جائعًا، رغم دموعه التي أغرقت التراب حوله لم يُلوّثه طين.. رغم كلّ شيء كان لسانه ينادي بصوت متهدّج:

يا ودود
يا ودود
يا ذا العرش المجيد
يا فعّالاً لما تريد
أتيتك ضعيفًا هزيلاً
تركت الدنيا وما فيها خلفي وهرعت إليك
أناديك في ظلمة القبر
وأنا غارق في ظلمة النفس
لا أرى قدمي الخائضة في ظلمة الذنب
ليس لي سواك
رباه
واشوقاه
واشوقاه
لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين

ناداك بها يونس في ظلمة كتلك فرددته إلى قومه بعد أن عرف الحقيقة، فهدى بها مائة ألف أو يزيدون

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين
وعدتنا أن تُنجينا بها من الغمّ

وأيّ غمّ أكبر من شقاق النفس وشوق الفؤاد
إلهي أدعوك مشتاقًا، بالدموع رقراقًا، آتيك بكل جوانحي عشاقا وأتنسم رضاك في الظلمة
اللهمّ فارضَ عني
اللهمّ فارضَ عني
وبينما يُناجي ربه أوقفته شهقة من خلفه في باطن القبر، فالتفت فإذا به يجده، كيانًا على هيئة رجل يرتجف، لماذا قطع خلوته بسيّده؟
لملم الكيان نفسه وقال:
ـ لقد تركت لك ما فوق الأرض وهربت للقاع بقبيلتي حين أتيتَ، فلماذا تهبط إلينا؟ اسأل تلك القرية عمّا كنّا نفعل بهم قبل أن تأتي، وبعد كلّ ذلك تقتحم مكاننا هكذا وتُروّع أطفالنا بنور ما تُردّد؟
ـ لم أقصد أن أؤذيكم، فأنا أُحبّكم.
ـ تُحبّنا؟
ـ نعم، لأنكم صنيعته، أراه فيكم.
زمجر الكيان وقال بغضب:
ـ أنت تكذب. من يُحبّ لا يؤذي.
ـ لا أقصد ولا أكذب، جئت هنا لألتمس الأصل، العدم، حيث لم يكن ولا يكون إلا هو حتى تفنى الحياة ولا أرى غيره.
هدأ الكيان وجلس على مقربة من الشيخ، ثم قال:
ـ في إحدى الأيام وسّوست لأحد أبناء آدم أن يشرب الخمر حتى ترنّح وانتشى، ولكن أيقظه من سكره أذان الفجر الذي آذاني، حينها رأيته يبكي.. أتعلم؟ لقد حسدته.. وسألت نفسي لماذا لا نبكي؟ لماذا كان البكاء عطيّة الرب لآدم ولم يجعله لنا. الماء والنار لا يجتمعان، فإما أن يُطفئ الماء النار أو أن تُبخّر النار الماء.
ـ بل يجتمعان في أصل الوجود، حين لا يكون للمصطلحات معنى، فتكون النار ماءً والماء نارًا، حين يسكن الله القلوب.
حين استمع الكيان لاسم الله صرخ ثم ولول قائلاً:
ـ لكنّه لا يُحبّني.. قد آذيت خلقه!
ـ أنت صنيعته، فاستسلم له حينها ستعرف.
ـ كلامك غريب يا رجل، لم أستمع إليه من قبل.
ـ أنا أنت يا أخي، لو نزعت الكِبر لرأيتني، التكبّر يعمينا، ما طُرد إبليس إلا لتكبّره وما غرق فرعون إلا لتكبّره، اكسر النفس وافطمها عن الهوى، هوى الغواية للبشر، حينها سترى كلّ شيء، لن تحرقك شهب السماء كي تصعد إليه، بل لن تكون بحاجة للصعود إليه فهو معك بداخلك.

بدا بعض الارتياح على الكيان الذي قال:

ـ لكنّني ربّ قبيلة من الجنّ، ماذا سيقولون عنّي؟

ـ سيغبطونك حين يروك.

ـ والبشر؟

ـ للبشر أعداء أكبر منكم، تكفيهم نفوسهم وهواهم.

ـ س...

ـ لا تتحدّث، بل اترك نفسك وارحل إليه، لا تُفكّر في غد.

ـ نعم الرحيل، أيّها الشيخ الطيّب، ستظل كلماتك بداخلي تُلقي فيّ صداها.. سأبحث عن الحقيقة في نفوس الكائنات وأرى فيها الله.

توقّف متعجبًا ثم استطرد:

ـ لقد قلت الله ولم أشعر بأذى، يبدو أن المعجزة تحدث، يبدو أنك على حق.. أيّها السيّد، أُعاهدك كسيّد لقبيلتي ألا يمسّ أحد من أبناء القبيلة ذريّتك ما بقي منّي ومنك خليفة.

ابتسم الشيخ ثم قال:

ـ أتُعاهد بما لا تملك؟

ـ بل أملك، وأقسم على ذلك.

ـ بماذا تقسم؟

ـ بكل غالٍ.

ـ بل بالله.

ـ أقسم بالله على ذلك!

قالها كمن أحب أن يذكر الكلمة التي حُرم منها دهرًا؛ «الله».

ـ أقسمت بما لا تملك يا صديقي، ولكنّي أعرف أن الله سيبر بقسمك، فربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه، وأراك ذلك الأشعث الأغبر الذي يبحث عنه حقيقة.

ـ أُعاهدك على البحث عنه.. وأتركك الآن لتأنس به، سآخذ أبنائي وأرحل بعيدًا، أترك لك تلك القرية ظاهرة وباطنة.

ابتسم الشيخ ثم قال:

ـ سعدت بلقائك يا أخي.

قالها والتفت يُعيد ما انقطع من تجليّات ويلتمس ما شاء من نفحات، قبل أن يبكي مناجيًا:

سيّدي وربي

يا من تجلّيت للجبل فخرّ صاعقًا

ويا من سكنت في قلب المؤمن فصار بصيرًا

ربّي
قلوب المؤمنين أمتن من الجبال
وأرق من نسيم الصبا
فامنحني قلبًا مؤمنًا يُحب كلّ شيء..

**مصطفى سيف الدين**
**قفط/سبتمبر** ٢٠١٣

# شكر

أتوجّه بالشكر للقائمين على مسابقة التكيّة الأدبية، وبخاصة الدكتورة إيمان الدواخلي، فلولا تلك المسابقة لم أكن لأُفكّر في هذه الرواية.

فهذه المسابقة الرائعة في كلّ عام تختار عنوانًا عامًا في إطاره يكون إبداع المتسابقين، وكان عنوان ذلك العام.. المكان هو البطل..

عبقرية المكان وتحوّل المكان من جماد إلى كائن حيّ له روح؛ كان هو الدافع لي لكتابة هذه الرواية..

لذا وجب عليّ أن أشكر جماعة التكيّة الأدبية لأنهم استطاعوا استفزاز قلمي لكتابة الرواية، وحين قرّرت الانسحاب من المسابقة ونشر روايتي منفردة كانوا خير داعمين لي..

وأتوجّه بالشكر للأصدقاء الذين شجّعوني لنشرها وقرأوها حين كانت حروفًا كيبوردية أسيرة فولدر مهمل على حاسوبي، ولم يبخلوا عليّ بملاحظاتهم، وهم:

أميرة الربع، منى هيكل، محمد فاروق المليجي، كارولين نبيل، رشيد أمديون، سمية محمد..

شكرًا لكم أيّها الأصدقاء الأعزّاء..

وشكر خاص جدًا لصديقي الغالي الكاتب المبدع أحمد عبد المجيد، الذي أقنعني بنشر هذه الرواية منفردة ولم يبخل عليّ بملاحظاته الفنيّة أو جهده وسعيه الدءوب كي تُصبح بين دفتيّ كتاب..

وأخيرًا لا ينبغي أن أنسى «أنا الذي ليس في جسدي»، المُلقّب بأسامة الأزهري..

أخي الحبيب وصديقي العزيز، أستغل هذه الفرصة كي أُدوّن هنا لقاءنا الأخير في القاهرة، تلك البلد التي لم أكن أُحبّها قط..

كنّا نمر بجوار ماسبيرو بعد لقاء أحد الأصدقاء، حينها قال لي: أنت ضيفنا، ما الذي تُحبّ؟ هل نجلس على النيل أم نذهب لشارع المعزّ؟

فكرت هنيهة ثم قلت: أنت مرشدي، فلتختر (قلتها وكنت أود لو أن نجلس على النيل، فعناء السفر شديد، وصعيدي مثلي يُرهقه الزحام).

نظر نحوي كأنّه يقرأ أفكاري، لكنّه قال: فلتتبعني إذن.

سألته: إلى أين؟

أجابني بسرعة: أنت قلت أنني مرشدك، فلتُسلّم لي نفسك.

وعرفت أننا سائران إلى شارع المعزّ لنبدأ مغامرة غريبة، مغامرة عقلية روحية.

في البداية أطلعته على سرّي الصغير: لم أُحبّ أبدًا القاهرة وأكره الزحام.

ـ نعم، لا أخفيك سرًّا، القاهرة أكثر تعقيدًا ممّا تبدو، والزحام بها شديد، ولا أقصد زحام الشوارع.

ـ ماذا تقصد؟ هل زحام الشارع أثّر على نفوس القاهريين؟

ـ نعم بالتأكيد، الأمور ليست بسيطة هنا.. كلّ شيء حتى لو رأيته بسيطًا فإن أسفله بركان ينتظر لحظة ثورة.

ـ قلت لك من قبل إنني انتهيت من كتابة رواية، ولولا علمي بأنك لست من محبّي قراءة الروايات الإليكترونية لأرسلتها إليك.. تتحدّث عن شيء ممّا تقول، إن بدواخلنا مرماحًا من الخواطر والأفكار والأحلام والأحداث يصدّنا عن صفو نفوسنا ورؤية حقيقة نغفلها، فهل ذلك ما تقصد؟

ـ مرماح كلمة بسيطة ووصف سهل لشيء جلل.

ـ إممم.. يبدو أنك على حق، إنها مراجل لها دويّ عنيف رغم أن صوتها لا يتعدّى حدود النفس، لقد كنت مع بعض الأصدقاء في القاهرة وسمعت ذلك الدويّ لكنّني شككت في أذني.. أنت على حق يا أسامة.

ابتسم قائلاً: أنا دائمًا على حق.

ضحكنا قبل أن أنظر نحو أحد الجسور العلوية وأتأمل ذلك الاسوداد الناتج من عوادم السيارات بأسفله، فصرخت كمن وجد شيئًا لافتًا للانتباه: أسامة، أترى ذلك الاسوداد أسفل الكوبري؟ هو ما تُنتجه المراجل بالنفوس.. كم أكره القاهرة، وجوه باشة ونفوس أصابها الاسوداد.

ـ ليست كذلك يا صديقي، لا تتعجّل الحكم.

ـ حسنًا، لا أخفيك سرًّا أنني أريد أن استثني منطقة السيدة زينب من حديثي، فهي المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالراحة هنا. في فترة تجنيدي كانت أجازتنا من مركز التدريب كلّ خميس وجمعة، فكنت أنتظر الخميس حتى أذهب إلى تلك المنطقة من الصبح حتى مغرب الشمس.. أبقى بالضريح ساعات جالسًا في أحد الأركان المواجهة للمقام، أنظر إليه صامتًا لا أتحدّث ولا أدعو، فقط صامت، ثم أُقلّب الوجوه فيمن حولي، الذي يشكو والذي يبكي والذي يُعطّر أجواء المكان، كانوا أرواحًا طيّبة.. أتعلم ما ذهبت إلى هناك جائعًا إلا وخرجت شبعانًا، الناس هناك رغم بساطتهم إلا أن الكرم رأس مالهم، البعض يقوم بتوزيع السميط والآخر يوزّع رغيفًا من الفينو مصحوباً بقطعة جبن مثلثة، حتى أخرج لأتنقّل بين المقاهي وأحصل على وجبة غداء من أحد المسامط، ثم أعود وأنا غارق في راحة روحانية.

ـ هذا حال القاهرة يا صديقي، لكنّها القاهرة الحقيقية.

ـ لم أرها.

ـ حين يجلو السواد ستراها.. بل دعني أُريك شيئًا منها.

وانطلقنا في الشوارع نمرّ على صور مرشحي الرئاسة وننظر في وجوه الناس، ولا نسمع غير أصوات أبواق السيارات ومحركّاتها، وبداخلي صرخة أعظم وسؤال غريب، كيف يعيشون هنا بين كلّ تلك الضوضاء؟

وصلنا أخيرًا إلى شارع المعزّ، وقبل أن أدخله شممت رائحة تُشبه رائحة غرفة جدّي في بيته القديم.. ذلك العبق الذي تركناه حتى اندثر في عصور التكنولوجيا.

وتعالى بداخلي سؤال: لماذا بيوتنا الحديثة التي هي أشدّ وأقوى من تلك القديمة بلا روح؟

لماذا صارت بيوتنا حارقة الحرارة صيفًا قاسية البرودة شتاءً بعكس غرفة جدّي؟ أيّ هندسة كانت تُبنى بها البيوت القديمة؟

ـ هنا تكمن روح القاهرة.

ذلك ما قاله لي أسامة وهو يتنقّل بي بين أروقة مسجد السلطان قلاوون ومسجد السلطان برقوق، صار يصف لي كلّ شيء كأنّه قد عاشه من قبل.. وبين كلماته رأيت الشيخ عبدالرحمن يجلس في حلقة علمه يشرح لطلابه أصول الحديث، ورأيت تاج الدين بينهم يُخفي عينيه عن عين شيخه ولا يرفعها مباشرة إلى وجهه، حتى لا يهيم فيُصيبه صمم الحديث، كان يشحذ حواسه كلّها في أُذنيه.. هناك عرفت معنى كلمة مماليك.

هناك قرّرت أن أُضيف الفصل الأخير في حضرة صديقي الذي قال لي يومًا إن شيخه علّمه كلمات لن ينساها، قال له: «كن حيث قلبك ثم اثبت».

فسألته ببلاهة: والهوى يا صديقي، ألم يخشه عليك؟

فصمت ولم يُجب.

ولكنّي في ذلك اليوم عرفت الإجابة.

**يا عبادي خلقت الأشياء كلّها من أجلكم، الأرض تقلّكم، والسماء تظلّكم، والجهات تكتنفكم والحيوانات تخدمكم، والنباتات تنفعكم، وخلقتكم من أجلي، فكيف تميلون إلى غيري، وتنسون إحساني وبرّي؟! الأشياء كلّها عبيدكم وأنتم عبيد الحضرة، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن، فإذا شهدت المكوّن كانت الأكوان معك.**

(البحر المديد في تفسير القرآن المجيد.. ابن عجيبة)

**ـ للتواصل مع المؤلف**

bestfriendmw1@hotmail.com

**ـ مدوّنة طير الرماد**

/http://6eyr-elramad.blogspot.com

# المحتويات


| | |
|---|---|
| إهداء | 3 |
| الخميس٢٠ من المحرم ١٤٠٧ هـ/٢٥ سبتمبر ١٩٨٦ م | 4 |
| ليلة الجمعة وصباحها ٣ ذي الحجة ١٤٢٢/ ١٥ فبراير ٢٠٠٢ | 9 |
| الثلاثاء ٧ ذي الحجة ١٤٢٢/ ١٩ فبراير ٢٠٠٢ | 18 |
| الخميس ٩ ذي الحجة ١٤٢٢/ ٢١ فبراير ٢٠٠٢ | 23 |
| الجمعة١٠ ذي الحجة ١٤٢٢/ ٢٢ فبراير ٢٠٠٢ | 26 |
| الإثنين ١٣ ذي الحجة ١٤٢٢/ ٢٥ فبراير ٢٠٠٢ | 33 |
| الجمعة ١٧ ذوالحجة ١٤٢٢/١ مارس ٢٠٠٢ | 41 |
| الخميس ٣٠ ذي الحجة ١٤٢٢/١٤ مارس ٢٠٠٢ | 48 |
| السبت ١٠ من المحرم ١٤٢٣/٢٤ من مارس ٢٠٠٢ | 57 |
| الخميس ١٠ شوال ١٤٣٢/ ٨ سبتمبر ٢٠١١ | 79 |
| الجمعة ١٠ من المحرم ١٤٤٥ هـ/٢٨ يوليو ٢٠٢٣ | 86 |
| خاتمة:السبت السادس من يوليو ١٢٧٥ ميلادية/ العاشر من المحرم ٦٧٤ هجرية | 91 |
| شكر | 97 |